مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١١٨]»[(١)].

قال الجصاص[(٢)]: «قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس: ٤٦]، ومعناه: والله شهيد»[(٣)].

وقال البغوي[(٤)]: «﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس: ٤٦]، في الآخرة، ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس: ٤٦]، فيجزيهم به، [ثُمَّ] بمعنى [الواو]، تقديره: والله شهيد»[(٥)].

ـ وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة].

سياق الآية العطف بـ[الواو] ولكن عَدَل إلى [ثُمَّ] حيث قال: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥]، ولم يقل: [وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ووليتم مدبرين].

قال ابن عاشور: «وموقع ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة]، موقع التراخي الرتبي؛ أي: وأعظم ممّا نالكم من الشرّ أن وليتم مدبرين»[(٦)].

فكأنه يشير إلى الحالة النفسية التي مر بها المسلمون في حنين، حيث إن [ثُمَّ] في أصلها للتراخي فتلمح إلى طول الزمن الذي جاء بعده الفرار مع

---

(١) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ١٢٣.

(٢) هو: الإمام أحمد بن علي أبو بكر الرازي الإمام الكبير المعروف بالجصاص، كان إمام الحنفية في عصره، من مصنفاته: «أحكام القرآن»، و«شرح مختصر الطحاوي»، و«شرح الأسماء الحسنى»، مات سنة (٣٧٠هـ)، له ترجمة في: طبقات الحنفية ١/ ٨٥، طبقات الداوودي ١/ ٥٦.

(٣) أحكام القرآن ٣/ ٣٧٢.

(٤) هو: الحسين بن مسعود الفراء البغوي أبو محمد الشافعي، يلقب بمحيي السُّنَّة، فقيه محدث مفسر، من مصنفاته: «لباب التأويل في معالم التنزيل»، و«شرح السُّنَّة»، مات سنة (٥١٦هـ)، له ترجمة في: طبقات السيوطي ٣٨، طبقات الداوودي ١/ ١٦١.

(٥) تفسير البغوي ٢/ ٣٦٤، وينظر: تفسير النسفي ١/ ٣٥٧.

(٦) التحرير والتنوير ٦/ ٣٣١.

صعوبته عليهم وشدته فقد حصل بعد حيرة واضطراب؛ فلو أتى بالواو لما أفادت هذه الدلالة، والله أعلم.

٣ ـ وتأتي الفاء بمعنى الواو:

كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الأعراف].

قال الفراء[(١)]: «إنما أتاها البأس مِن قَبْل الهلاك، فكيف تَقَدَّم الهلاك؟»[(٢)].

أجاب العلماء على هذا الإشكال بأجوبة[(٣)] منها: وقوع الهلاك والبأس معاً فتكون الفاء بمعنى الواو كقوله: أعطيت فأحسنت، وكان الإحسان مع العطاء لا بعده، فلا تفيد الترتيب، ولا يحتاج السياق إلى تقدير[(٤)].

وحين نتأمل في سياق القرآن نجد الانتقال من العطف بالواو في نفس الموضع إلى الفاء، مما يزيد الأسلوب جمالاً، ويدل على أن بينهما اجتماعاً وافتراقاً.

قال تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾﴾ [النّازعات].

جاءت هذه الآيات متعاطفة بالواو إلى قوله: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾﴾

---

(١) هو: يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور بن مروان أبو زكريا الديلمي، المعروف بالفراء، إمام الكوفيين، ومن أعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، من مصنفاته: «معاني القرآن»، و«كتاب اللغات»، و«مشكل اللغة»، مات سنة (٢٠٧هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٢/ ٢٢٨، طبقات الداوودي ٢/ ٣٦٧.

(٢) معاني القرآن ١/ ٣٧١.

(٣) قال أبو حيان: «فلا بدّ من تجوّز إما في الفعل بأن يراد به: أردنا إهلاكها، وإما أن يختلف المدلولان بأن يكون المعنى: أهلكناها بالخذلان وقلة التوفيق فجاءها بأسنا بعد ذلك، وإما أن يكون التجوّز في الفاء: بأن تكون بمعنى الواو وهو ضعيف، أو تكون لترتيب القول فقط فكأنه أخبر عن قرى كثيرة أنه أهلكها، ثم قال: فكان من أمرها مجيء البأس، وقيل: الفاء ليست للتعقيب وإنما هي للتفسير» البحر المحيط ٤/ ٢٦٩.

(٤) ينظر: معاني القرآن ١/ ٣٧٢، تفسير ابن عبد السلام ٢/ ١١١، تفسير القرطبي ٧/ ١٦٢.

[النَّازعات]، ثم عدل السياق عنها إلى الفاء في قوله: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝٥﴾ [النَّازعات].

قال الزمخشري: «أقسم ﷻ بطوائف من الملائكة تنزع الأرواح من الأجساد، وبالطوائف التي تنشطها؛ أي: تخرجها، من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وبالطوائف التي تسبح في مضيها؛ أي: تُسرع فتَسبِق إلى ما أمروا به، فتُدَبِّر أمراً من أمور العباد»(١).

فالحاصل من كلام الزمخشري أن الله أقسم بطوائف من الملائكة؛ فالأُولى: التي تنْزع الأرواح من الأجساد، والثانية: التي تخرجها، والثالثة: التي تسبح في مضيها؛ أي: تُسرِع فتَسْبِق فتُدَبِّر، فوقف عند هذه، فوصفها بثلاث صفات متتابعة؛ وهي: السبح والسبق والتدبير؛ لذلك عطف بين صفاتها بالفاء، وعطف بين ذوات الطوائف بالواو، والله أعلم.

ـ كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۝١ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٥﴾ [المرسلات].

في هذه الآيات العدول عن الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۝٢﴾ [المرسلات] إلى الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۝٣﴾ [المرسلات]؛ ثم العدول إلى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۝٤﴾ [المرسلات].

ومن خلال استقراء الآيات التي جاءت على هذا الأسلوب ودراستها يتبين دقة اختيار حرف العطف ودلالته العميقة.

قال الزمخشري: «أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره، فعصفن في مضيهن؛ كما تعصف الرياح تخففاً في امتثال أمره، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين، ففرقن بين الحق والباطل فألقين ذكراً إلى الأنبياء»(٢).

وهذا؛ وإن كان استنباطاً جميلاً أن يَجْعل [الواو] لعطف الذوات،

(١) الكشاف ٤/ ١١٢.
(٢) الكشاف ٤/ ٦٧٧.

[الفاء] للتفريع في عطف الصفات؛ لأن الأصل في المتعاطفات التغاير في الذوات على وجه العموم، ولمَّا جَمَع بين [الواو] و[الفاء] في موضع واحد فُرِّق بينهما بأن [الواو] على الأصل في عطف الذوات ومجيء [الفاء] تفريع لصفات المتعاطفات؛ إلا أنه لا يطَّرِد في القرآن، وليس عليه جميع المفسرين.

ففي القرآن عطف الصفات على بعض بالواو مع أنها لموصوف واحد، وجيء بحرف العطف بينها.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤﴾ [الأعلى].

ـ وجاء العطف أيضاً بالفاء مع أن الذوات مختلفة على قول جميع المفسرين[(١)]؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ [الذاريات].

يقول الألوسي: «وعَطفُ الناشرات على ما قبل بالواو ظاهرٌ للتغاير بالذات بينهما، وعطف العاصفات على المرسلات، والفارقات على الناشرات، وكذا ما بعد بالفاء؛ لتنزيل تغاير الصفات منزلة تغاير الذات»[(٢)].

وعلى هذا؛ فالذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن الواو جاءت لعطف الذوات، وتنزيلٌ لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات.

فالآية تدل على أن ما عدل فيه من الواو إلى الفاء طائفة واحدة من الملائكة ذات صفات متعددة، والفاء للدلالة على تعاقب هذه الصفات وتتابعها، وهذه الدلالة لا توجد في الواو، والله أعلم.

٤ ـ وكذلك أو تأتي بمعنى الواو عند أمن اللبس[(٣)].

قال السيوطي: «وذكر أهل التفسير أن [أَوْ] في القرآن على ثلاثة أوجه... وذكر منها معنى: [الواو]، ومنه قوله تعالى في الأنعام: ﴿أَوْ مَا

(١) تفسير الطبري ٢٢/ ٣٩١.
(٢) روح المعاني ٢٩/ ١٦٩.
(٣) شرح ابن عقيل ٣/ ٢٠٧.

ٱخْتَلَفَ بِعَظْمٍۚ﴾ [١٤٦]، وفي طه: ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [٤٤]»[(١)].

وقال ابن كثير: «وذهب ابن جرير الطبري ومن تبعه من كثير من المفسرين أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون [أَوْ] في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩] بمعنى [الواو]؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإنسان: ٢٤]»[(٢)].

وقال الرازي: «﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةًۚ﴾ [النساء: ٧٧] [أَوِ] بمعنى [الواو] والتقدير: يخشونهم كخشية الله وأشد خشية»[(٣)].

وقال الكيا الهراسي[(٤)]: «﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةًۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾﴾ [البقرة] فلو كان الأول بمعنى: ما لم تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة أو لم تفرضوا، لمَا عطف عليها المفروض لها، فعُلم أن معناه: ما لم تمسوهن ولم تفرضوا لهن فريضة، فيكون [أَوْ] بمعنى [الواو]»[(٥)].

وقال الطبري: «﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الذاريات: ٣٩] وكان معمر بن المثنى يقول: [أَوْ] في هذا الموضع بمعنى [الواو] التي للموالاة؛ لأنهم قالوها جميعاً له»[(٦)].

بل إن آية البقرة في قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ﴾ [البقرة: ١٩٦] دلالة على أن [الواو] تأتي بمعنى [أَوْ]، ولذلك قال في البيان: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ﴾ للدلالة على أنها على معناها الأصلي.

قال أبو السعود: «﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ﴾ فذلكة الحساب[(٧)]، وفائدتها أن لا

---

(١) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ١٠٩.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٩٤. (٣) تفسير الرازي ١٠/ ١٤٨.
(٤) هو: علي بن محمد بن علي الطبري أبو الحسن الشافعي، الملقب بعماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي، من أشهر مصنفاته: «أحكام القرآن»، مات سنة (٥٠٤هـ)، له ترجمة في: طبقات الشافعية ٤/ ٢٨١، شذرات الذهب ٤/ ٨.
(٥) أحكام القرآن ١/ ٢٠٠. (٦) تفسير الطبري ٢١/ ٥٣٥.
(٧) الفذلكة: كلمة مخترعة من قوله؛ أي: الحاسِبِ إذا أجْمَلَ حسابه: فذلِك كذا وكذا =

يتوهم أن [الواو] بمعنى [أَوْ]»[١].

إذن:

حروف العطف ينوب بعضها عن بعض، وهي عادةٌ لها أثر في معاني القرآن، وهو موضوع طويل، قد لا يتفق المفسرون في مفرداته على معنى واحد وليس هذا مقصوداً هنا؛ بل لنعلم أن هذه العادة جارية عند العرب وفي كتاب الله منها مواضع كثيرة نبه عليها المفسرون.

ويستنبط من هذا التناوب أمور منها:

١ ـ جمال الأسلوب القرآني بعدم الاستمرار على صيغة واحدة عند كثرة المتعاطفات.

٢ ـ إفادة معنى جديد عند النيابة لا يؤديه الحرف الأصلي.

٣ ـ في تنويع هذه الحروف نوع من الإعجاز البياني.

٤ ـ الربط بحروف العطف بين الجمل يكون على حسب ما يناسب المعنى، ويُزَيِّن النطق بالقرآن.

ومن لطائف هذا المطلب:

١ ـ أن ثم لم تقع عاطفة للمفرد على المفرد في القرآن، وإنما جاءت عاطفة للجمل[٢].

٢ ـ الفاء جاءت عاطفة للمفرد وللجملة في القرآن، ولكن عطفها للاسم في نوع معين لم تتجاوزه: وهو عطف الصفات، فتَعْطِف اسم الفاعل على اسم الفاعل فقط[٣]؛ كقوله تعالى: ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢﴾ [الصَّافات]، ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝٤﴾ [النَّازعات]، ﴿فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ۝٢﴾ [العاديات]، ولم أستطع أن أصل إلى سببٍ في اختيار هذا الأسلوب مع الفاء، فالله أعلم بأسرار كتابه.

= عدداً، وهي مثل قولهم: فَهْرَس الأبواب فَهْرَسَةً، إلا أن فَذْلَكَ ضارِبٌ بعرقٍ قي العربية، وفَهْرَس مُعَرَّب، تاج العروس ٢٧/ ٢٩٣، وينظر: التسهيل ١/ ١٣٨، الكليات ١١٠٤.

(١) تفسير أبي السعود ١/ ٢٠٧.
(٢) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن ٨/ ١١.
(٣) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن ٢/ ٨، ١١/ ١٨٩.

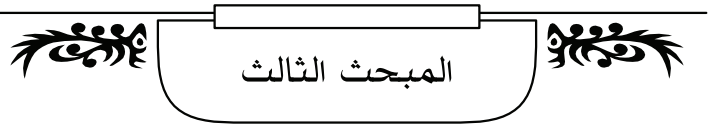

التأكيد ببعض الحروف أو حذفها

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: التأكيد ببعض حروف المعاني.**
- **المطلب الثاني: تقوية المعنى ببعض الحروف.**
- **المطلب الثالث: حذف بعض الحروف.**

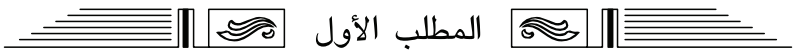

التأكيد ببعض حروف المعاني

الحروف قسمان: حروف مَعَان، وحروف مَبَان.

وفي هذا المطلب بيان أن من عادات القرآن تأكيد السياق القرآني بحروف المعاني، وسيأتي الكلام في المطلب التالي حول تقوية المعنى بحروف المباني.

والمراد بحروف المعاني: ما جاء لمعنى وليس باسم ولا فعل[١].

وحروف المباني: هي حروف الهجاء[٢].

وقبل ذكر أمثلة العادة أشير إلى أنه قد يُسَمِّي بعض العلماء حرف التأكيد زائداً، وهذا اصطلاح إعرابي درج عليه كثير من علماء اللغة العربية، ومن العلماء من سماه حرف الصِّلَة والحشْو واللغْو.

قال الرضي عن الحروف الزائدة: «. . . وسميت أيضاً حروف الصلة؛

(١) الكتاب ١٢، الصاحبي في فقه اللغة ١٧، هذا من أحسن ما عُرِّف به حرف المعنى.
(٢) اللباب في علل البناء والإعراب ٥٠.

لأنها يُتوصَّل بها إلى زيادة الفصاحة أو إلى إقامة وزن أو سجع أو غير ذلك»[١].

وقال ابن يعيش[٢]: «والصلة والحشو من عبارات الكوفيين، والزيادة والإلغاء من عبارات البصريين»[٣].

قال ابن عثيمين[٤]: «قوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر: ١٣] ما: نافية، مِن: حرف جر زائد لفظاً، وقيل: لا ينبغي أن يقال: حرف جر زائد في القرآن، بل يقال: مِن: حرف صِلَة، وهذا فيه نظر؛ لأن الحروف الزائدة لها معنى، وهو التوكيد»[٥].

وقد نزه بعض العلماء كتاب الله تعالى من أن يكون فيه حرف زائد.

قال ابن هشام: «ينبغي للمُعْرِب أن يتجنب أن يقول في حرف في كتاب الله تعالى: إنه زائد؛ لأن الزائد هو الذي لا معنى له، وكلام الله منزه عن ذلك»[٦].

المهم هنا أنه جاء التأكيد بالحروف في القرآن والشعر ما لا يحصى، وكل حرف في القرآن ففيه فائدة؛ وقول من قال حرف زائد ليس على ظاهره؛ فالمراد بالحرف الزائد: أنه زائد في الإعراب، فيؤول الأمر إلى الخلاف اللفظي.

---

(١) شرح الكافية للرضي ٤/ ٤٣٣.

(٢) هو: يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء الموصلي، موفق الدين الأسدي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع، من كبار العلماء بالعربية، من كتبه: «شرح المفصل»، و«شرح التصريف الملوكي» لابن جني، مات سنة (٦٤٣هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٢/ ٣٤١، شذرات الذهب ٥/ ٢٢٨.

(٣) شرح المفصل ٨/ ١٢٨.

(٤) هو: محمد بن صالح بن عثيمين الوهيبي أبو عبد الله التميمي، من مؤلفاته: «تفسير آيات الأحكام ولم يكمل»، «أصول في التفسير»، مات سنة (١٤٢٠هـ)، له ترجمة في: مقدمة مجموع فتاواه جمع فهد السليمان ١/ ٩.

(٥) القول المفيد على كتاب التوحيد ١/ ٢٨٥.

(٦) قواعد الإعراب ١٦٩، وينظر: البرهان ١/ ٣٠٥.

قال الزركشي: «وجميع ما قيل فيه زائد، ففائدته التوكيد؛ لأن الزيادة في الكلام تقتضي أن ذلك لم يصدر عن غفلة، وإنما صدر عن قصد وتأمل، وذلك من فوائد التوكيد اللفظي»(١).

وقال ابن عثيمين: «إنه زائد من حيث الإعراب، أما من حيث المعنى، فهو مفيد وليس في القرآن شيء زائد لا فائدة منه، ولهذا نقول: هو زائد، زائد بمعنى أنه لا يُخِلُّ بالإعراب إذا حذف»(٢).

فهذه الحروف الزائدة جِيء بها لفوائد لفظية كتزيين السياق وزيادة الفصاحة.

ولفوائد معنوية كالتأكيد؛ والتأكيد معنى مقصود، فللحرف معنى في السياق لا يكون إلا به.

وعلل بعض العلماء الزيادة بكون ما بعد الحرف معمول لما قبله، ومن ذلك قول أبي حيان: «ومعنى الزيادة فيها: أن ما بعدها معمول لما قبلها»(٣).

وقد اتفقت كلمة المفسرين والنحويين والبلاغيين: أنه يمتنع أن يوجد في القرآن الزيادة المحضة التي يكون وجودها كعدمها.

وسأشير إلى عادة القرآن بزيادة بعض حروف المعاني للتأكيد في القرآن مع ذكر الأمثلة:

أولاً: عادة القرآن زيادة [مَا] للتأكيد كلما جاءت بعد [قَلِيلاً]:

ـ كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [البقرة].

أي: اعتذروا عن الإيمان بأن قلوبهم غلف؛ أي: عليها غلاف وأغطية، فلا يخلص إليها ما تقول، يزعمون أنه عذر لهم، وهذا كذب منهم، فلهذا قال تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾؛ أي: أنهم مطرودون ملعونون، بسبب

(١) البحر المحيط في أصول الفقه ١/ ٣٧١.
(٢) مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين ٨/ ١٦٣.
(٣) البحر المحيط ٤/ ٤٣٦.

كفرهم، فقليلاً المؤمن منهم، أو قليلاً إيمانهم، وكفرهم هو الكثير[١].

قال أبو حيان: «زيادة ما للتوكيد لا ينكره في أماكنه من له أدنى تعلق بالعربية، فضلاً عن من يتعاطى تفسير كلام الله»[٢].

فـ[مَا] هنا زائدة مؤكدة، وفي كل موضع مثل هذا السياق؛ فلا يجوز أن تكون مصدرية؛ لأنه يلزم رفع [قَلِيلاً] ليكون مبتدأ وخبراً، ولا يجوز أن تكون [مَا] نافية لتقدم معمول ما في حيزها عليها[٣].

قال مكي[٤] في تفسير الآية: «و[مَا]: زائدة»[٥].

وقال أبو السعود: «﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [مَا]: مزيدةٌ للمبالغة؛ أي: فإيماناً قليلاً يؤمنون»[٦].

ومواضع زيادة [مَا] في القرآن كثيرة، أذكر على سبيل الإشارة:

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٣].
- وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠].
- وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون].
- وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: ٦٢].
- وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة: ٩].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ١/ ٣٢٤، تفسير السعدي ٥٨.

(٢) البحر المحيط ٣/ ١٠٤.

(٣) المراد: تقدم [قليلاً] وهو معمولُ ما في حَيِّز: [ما]، على العامل وهو الفعل: يؤمنون، وهذا لا يجوز عند أهل اللغة. ينظر: البحر المحيط ١/ ٤٧١، دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٣/ ١١٥.

(٤) هو: مكي بن أبي طالب أبو محمد القيسي القيرواني المالكي، من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية، ومن مصنفاته: «مشكل إعراب القرآن»، «الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه»، مات سنة (٤٣٧هـ)، له ترجمة في: طبقات الداوودي ٢/ ٣٣١، شذرات الذهب ٣/ ٢٦٠.

(٥) الهداية إلى بلوغ النهاية ١/ ٣٤٤.

(٦) تفسير أبي السعود ١/ ١٢٨.

ـ وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [غافر: ٥٨].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقَّة].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقَّة].

ففي كل هذه المواضع وغيرها زيادة [مَا] لإرادة التوكيد، مع تقوية اللفظ وصلة الكلمات وتمام الفصاحة.

قال العكبري: «زيادة [مَا] تؤذن بإرادة شدة التوكيد»(١).

وقال ابن عاشور: «وشاعت زيادة مَا بعد اسم: قليل، وكثير، وبعد فعل: قل، كثر، طال»(٢).

ثانياً: عادة القرآن زيادة [مَا] للتأكيد كلما جاءت بعد [إِذَا]:

حسب استقراء المواضع التي جاءت فيها [مَا] بعد [إِذَا] تبيَّن أنها زائدة للتأكيد في جميع المواضع.

قال أبو حيان: «[مَا] بعد إذا زائدة للتأكيد»(٣).

ولنتأمل في المواضع، ومنها:

ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

المراد: إذا دعوا، ولكن لزيادة التأكيد جاءت ما.

قال البقاعي(٤): «﴿إِذَا مَا دُعُوا۟ۚ﴾ دعاء جازماً بما أفهمته زيادة [مَا]»(٥).

وقال ابن عثيمين: «أي: لا يمتنع الشهداء إذا ما دعوا لتحمل الشهادة،

---

(١) التبيان في إعراب القرآن ١/ ٥٤، وينظر: البرهان في علوم القرآن ٢/ ٤١٦، التحرير والتنوير ٢٦/ ٣٤٩.

(٢) التحرير والتنوير ٢٧/ ١٦.

(٣) البحر المحيط ٧/ ٤٧١.

(٤) هو: إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط بن علي بن أبي بكر البقاعي، أبو الحسن برهان الدين، مؤرخ أديب، أصله من البقاع في سورية، من مصنفاته: «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور»، و«القول المفيد في أصول التجويد»، و«عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران»، مات سنة (٨٨٥هـ)، له ترجمة في: شذرات الذهب ٧/ ٣٣٩، البدر الطالع ١/ ١٩.

(٥) نظم الدرر ١/ ٥٤٧.

أو أدائها؛ وما هذه زائدة لوقوعها بعد إذا؛ وفيها بيت مشهور يقول فيه:

يا طالباً خذ فائدة [مَا] بعد [إِذَا] زائدة

ولكن يجب أن نعلم أنه ليس في القرآن شيء زائد بمعنى أنه لا معنى له؛ بل زائد إعراباً فقط؛ أما في المعنى فليس بزائد»(١).

ـ وكذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [المائدة: ٩٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة].

عند التأمل في هذه الآية التي زيدت فيها [مَا] للتأكيد، والآية التي قبلها بدون زيادة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [التوبة]، يدل على معنى دقيق للتفريق بينهما.

قال ابن عاشور: «﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة]، عطف على قوله: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ [التوبة]، وهذا عود إلى بيان أحوال المنافقين وما بينهما اعتراضات.

وهذه الآية زيدت فيها [مَا] عقب [إِذَا] وزيادتها للتأكيد؛ أي: لتأكيد معنى [إِذَا] وهو الشرط؛ لأن هذا الخبر لغرابته كان خليقاً بالتأكيد، ولأن المنافقين ينكرون صدوره منهم بخلاف الآية السابقة؛ لأن مضمونها حكاية استيذانهم وهم لا ينكرونه»(٢).

---

(١) تفسير القرآن الكريم لابن عثيمين ٣/ ٤٠٧.
(٢) التحرير والتنوير١١/ ٦٤.

ـ وكذلك زيدت [مَا] في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يونس].

ـ وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنبياء].

ـ وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [فصّلت].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورى].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾﴾ [الفجر].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر].

ثالثاً: عادة القرآن زيادة [الباء] للتأكيد في فاعل [كَفَى]:

عند تأمل [الباء] في فاعل [كَفَى] يتبين أنها زائدة للتأكيد في جميع مواضعها في القرآن(١).

قال أبو حيان: «وزيادتها في فاعل [كَفَى] وفاعل [يكفي] مُطَّردة»(٢).

قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾ [النساء: ٦]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾ [النساء: ٤٥]، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾ [النساء: ٥٠]، ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥٥]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٧٠]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء: ٧٩]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [النساء: ٨١]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ [النساء: ١٣٢]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾

(١) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٨/ ٣٦٧، ٣٧٠.
(٢) البحر المحيط ٣/ ٦٥٩.

[النساء: ١٧١]، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣]، ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء]، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧]، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٥]، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الإسراء]، ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: ٣١]، ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: ٥٨]، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٩]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾ [الأحزاب: ٤٨]، ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ [الأحقاف: ٨]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨].

ومما يدل على زيادة [الباء] في [كَفَى] ورودها دون [الباء] في فاعلها، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٣٧].

وبعد استقراء فاعل [كَفَى] في القرآن تبين لي:

أن عادة القرآن جر فاعل [كَفَى] بـ[الباء] الزائدة للتأكيد عدا الآية السابقة: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥] فقط.

قال ابن هشام: «ولا تزاد [الباء] في فاعل [كَفَى] التي بمعنى: أجزأ وأغنى، ولا التي بمعنى: وقى»(١).

وفي الآية السابقة [كَفَى] بمعنى: وَقَى، والله أعلم.

رابعاً: عادة القرآن زيادة [أَنْ] للتأكيد كلما جاءت بعد [لَمَّا]:

كل ما جاء في القرآن [أَنْ] بعد [لِمَا] فهي زائدة للتأكيد.

---

(١) مغني اللبيب ١١٦، وينظر: الإتقان ١/ ٤٦٤.

ـ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٦].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [العنكبوت: ٣٣].

فـ [أنْ] في هذه المواضع زائدة للتأكيد.

قال السمين[(١)]: «قوله: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ﴾ [العنكبوت: ٣٣] تقدم نظيرُها، إلا أَنَّ هنا زيدت [أنْ] وهو مطردٌ تأكيداً»[(٢)].

وقد أشار بعض العلماء أن زيادة [أنْ] يفيد تحقيق الربط بين مضمون الجملتين اللتين بعد [لَمَّا].

قال الزمخشري: «﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ﴾ [أنْ] صلة أكدت وجود الفعلين مترتباً أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما كأنهما وجِدا في جزء واحد من الزمان، كأنه قيل: لما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير رِيْث خِيفة عليهم من قومه»[(٣)].

وخلاصة ما وجدته من كلام المفسرين والنحويين: أن الحرف الزائد لا يخلو من معنى التأكيد.

قال ابن السراج: «وحق المُلْغى عندي أن لا يكون عاملاً ولا معمولاً فيه حتى يُلغَى من الجميع، وأن يكون دخوله كخروجه لا يُحدِث معنى

---

(١) هو: أحمد بن يوسف بن عبد الدايم الحلبي، أبو العباس، شهاب الدين المعروف بالسمين، مفسر، عالم بالعربية والقراءات، شافعي، من أهل حلب، من مصنفاته: «الدر المصون في إعراب القرآن»، و«عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ في غريب القرآن»، و«شرح الشاطبية»، مات سنة (٧٥٦هـ)، له ترجمة في: غاية النهاية ١/ ١٥٢، الدرر الكامنة ١/ ٣٣٩.

(٢) الدر المصون ٩/ ١٩.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٥٣، وينظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٤٤.

غير التأكيد»[١].

وكذلك قال ابن جني عن الحروف: «وأما زيادتها فلإرادة التوكيد بها»[٢].

بل ذكر بعض النحويين للحرف الزائد أكثر من فائدة التوكيد.

قال الرضي: «قيل: فائدة الحرف الزائد في كلام العرب: إما معنوية وإما لفظية فالمعنوية تأكيد المعنى.. وأما الفائدة اللفظية فهي تزيين اللفظ، وكون زيادتها أفصح، أو كون الكلمة أو الكلام بسببها تهيأ لاستقامة وزن الشعر، أو لحسن السجع، أو غير ذلك من الفوائد اللفظية»[٣].

وقد تجتمع الفائدتان ـ لفظية ومعنوية ـ في حرف وقد تنفرد إحداهما عن الأخرى[٤].

وقال الرضي أيضاً: «فإن قيل: فيجب ألا تكون زائدة إذا أفادت فائدة معنوية. قيل: إنما سُمِّيت زائدة لأنه لا يتغير بها أصل المعنى بل لا يزيد بسببها إلا تأكيد المعنى الثابت وتقويته، فكأنما لم تُفد شيئاً لمَّا لم تُغاير فائدتُها العارضة الفائدةَ الحاصلة قبلها... ولا يجوز خُلُوّها من الفوائد اللفظية والمعنوية معاً؛ وإلّا لعُدَّتْ عبثاً، ولا يجوز ذلك في كلام الفصحاء، ولا سيما في كلام الباري تعالى وأنبيائه»[٥].

وقال الزركشي: «سُئل بعض العلماء عن التوكيد بالحرف؟ وما معناه؟ إذ إسقاط كل الحرف لا يخل بالمعنى، فقال: هذا يعرفه أهل الطباع؛ إذ يجدون أنفسهم بوجود الحرف على معنى زائد لا يجدونه بإسقاط الحرف»[٦].

والذي يظهر بعد هذا:

أن زيادة الحروف من عادة العرب في شعرهم ونثرهم، ومن أهم الحروف التي قيل بزيادتها: ما، أَنْ، الباء، لا النافية، مِنْ[٧].

---

(١) الأصول في النحو ٢/ ٢٥٩.
(٢) الخصائص ٢/ ٢٨٤.
(٣) شرح الكافية للرضي ٤/ ٤٣٢، ٤٣٣.
(٤) ينظر: إعراب القرآن وبيانه ٨/ ٣٧٩.
(٥) شرح الكافية للرضي ٤/ ٤٣٢، ٤٣٣.
(٦) البرهان ٣/ ٧٤.
(٧) ينظر: الكتاب ٤/ ٢٢١، ٢٢٢، الجنى الداني ١/ ٦، ٥٠، ٥٣، ٥٦، مغني اللبيب ١٤٤، ٣٢٧، دراسات لأسلوب القرآن ١/ ٤٢٠، ٢/ ٤٧١، ٣/ ٣٤٧، ٤١٥.

وتَرْك الزيادةِ في مَواضِعِها نَقْص في البلاغة والفصاحة، وَوُجُودُ الزيادة للتأكيد في القرآن نوع من الإحاطة بلسان العرب، ونوع من الإعجاز البياني وجمال النظم القرآني، وللزيادة في القرآن فائدتان: لفظية ومعنوية.

وإن كان مصطلح الزيادة ليس لفظاً متفقاً عليه؛ فليس المراد بالزيادة ظاهرها بل المراد: أنه لا يتوقف عليها المعنى الإعرابي، فلا ينبغي التوسع فيها، ولا يعني أن يقابلها النقصان فالقرآن منزه عن ذلك، والله تعالى أعلم.

المطلب الثاني

تقوية المعنى ببعض الحروف

صرَّح عامة علماء اللغة أن زيادة مبنى الكلمة يدل على زيادة المعنى[١]، وكل حرف في كتاب الله موضوع بحساب وميزان دقيق، ليؤدى المعنى الذي أراده الله منه، وقد سبق الكلام عن تأكيد المعنى القرآني بحروف المعاني، وسيكون هنا عن تقويته بحروف المباني.

والمراد بحروف المباني حروف الهجاء التي ليس لها معنى في نفسها، وإنما تبنى منها الكلمات التي تدل على المعاني.

وعادة القرآن تقوية المعاني بزيادة حرف على أصل بِنْيَة الكلمة، وقد أطلق العلماء على هذه العادة عبارات متقاربة كقولهم: زيادة اللفظ لزيادة المعنى[٢]، وقولهم: قوّة اللفظ لقوّة المعنى[٣].

قال ابن جني: «فإذا كانت الألفاظ أدلة المعاني، ثم زيد فيها شيء أوجبت القسمة له زيادة المعنى به»[٤].

وقال الزركشي: «الألفاظ أدلة على المعاني؛ فإذا زيدت في الألفاظ

---

(١) ينظر: الخصائص٣/ ٢٦٤، المثل السائر ٢/ ٥٧، ضياء السالك ٣/ ٣٥٥، قواعد التفسير ١/ ٣٥٦.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى ١٦/ ٥٣٧.

(٣) ينظر: الطراز لأسرار البلاغة ١/ ٣٨٨.

(٤) الخصائص ٣/ ٢٦٨.

وجب زيادة المعاني ضرورة»[١].

وعلى هذا فقد جاءت عادة القرآن بدلالة سياقه أن زيادة المبنى علامة على قوة المعنى، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

❐ أولاً: زيادة الحرف:

عند النظر إلى قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود].

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾﴾ [المزمل].

وغيرها من الآيات الكثيرة، جاءت بلفظ: اصبر.

وفي مواضع أخرى زيدت الطاء كما في الآيات التالية:

ـ قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم].

فأصل اصطبر: اصبر، ولكن زيادة الطاء له أثر كبير في المعنى، كيف والطاء من أقوى الحروف، ولا أعرف كلمة فيها حرف الطاء إلا وتحس فيها بالقوة، نحو: بطش، وطبع، وقطع، طلع، خبط، وزيادة الطاء في الآية؛ لأن الصبر على العبادة يحتاج إلى جهد وقوة وشدة.

قال أبو السعود: «وتعدية الاصطبار باللام لتضمينه معنى الثبات للعبادة فيما تورد عليه من الشدائد والمشاق»[٢].

ـ **ومن الأمثلة قوله سبحانه:** ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه].

جاءت زيادة الطاء في الصبر على الصلاة بإقامتها، بحدودها وأركانها وآدابها وخشوعها، فإنَّ ذلك شاقٌّ على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهادها

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٤.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٧٤.

على ذلك، والصبر معها دائماً، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفَظُ وأقوَم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع، والقيام بهذا الأمر يحتاج إلى صبر كبير لذا جاءت كلمة (اصطبر) للدلالة على الزيادة في الصبر، والله أعلم.

قال الطبري: «يقول: واصطبر على القيام بها، وأدائها بحدودها أنت»[١].

وقال السمرقندي: «﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾؛ يعني: اصبر على ما أصابك فيها من الشدة»[٢].

ـ ومن الأمثلة قوله جل وعلا: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾ [القمر].

قال الزركشي: «وكقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ فإنه أبلغ من الأمر بالصبر من اصبر»[٣].

وقال الكفوي[٤]: «﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ داوم»[٥].

وقال ابن عاشور: «والاصطبار: الصبر القوي، وهو كالارتقاب أيضاً أقوى دلالة من الصبر؛ أي: اصبر صبراً لا يعتريه ملل ولا ضجر؛ أي: اصبر على تكذيبهم ولا تيأس من النصر عليهم»[٦].

ـ ومن الأمثلة قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٧]، فلم يقل: (يصرخون) إشارة لشدة الصراخ.

قال الزركشي: «وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٧] فإنه أبلغ

---

(١) تفسير الطبري ١٨/ ٤٠٥.
(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ٤١٨.
(٣) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٤.
(٤) هو: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء، من قضاة الأحناف، عاش وولي القضاء في (كَفَه) بتركيا، وبالقدس، وببغداد، من أشهر مصنفاته: «الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية»، وله كتب أخرى بالتركية، مات سنة (١٠٩٤هـ)، له ترجمة في: هدية العارفين ٢٢٩، الأعلام ٢/ ٣٨.
(٥) الكليات ١٨٦.
(٦) التحرير والتنوير ٢٧/ ٢٠٠.

من يتصارخون»[١]، والله أعلم.

ومن أمثلة زيادة الحرف لزيادة المعنى:

ـ قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف].

قال البغوي وابن الجوزي: «استطاع واسْطَاع بمعنى واحد»[٢].

معنى هذه الآية عند أهل التأويل كما قال الطبري: «﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف] يقول عز ذكره: فما اسطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوا الردم الذي جعله ذو القرنين حاجزاً بينهم، وبين من دونهم من الناس، فيصيروا فوقه وينزلوا منه إلى الناس... ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف] يقول: ولم يستطيعوا أن ينقبوه من أسفله، وبنحو الذي قلنا في ذلك: قال أهل التأويل»[٣].

إذن فما السر في استعمال القرآن لها بالتاء وبدونها في آية واحدة؟.

الذي يظهر والله أعلم أن ذلك لأمور منها:

١ ـ تناسبُ اللفظ مع السياق فتَسَلُّق السَدِّ شيء لطيف يحتاج إلى لطفٍ وخفة فناسب حذف التاء، وأما النقب والخراب فأمْرُه ثقيل يحتاج إلى جُهد وقوة وآلات كثيرة؛ فناسب ذِكْرُ التاء ليكون ثِقَلُ الكلمةِ مناسبٌ لثِقَل الفعل، وخِفَّةُ الكلمةِ مناسب لخفة الفعل، والله أعلم.

٢ ـ بيان إعجاز القرآن في حروفه وألفاظه.

٣ ـ وعلى قول من قال إنهما بمعنى واحد فللزيادة أثر في التنويع بين اللفظين للمعنى الواحد بدون تكرار مع جمال الصوت والأداء، وهذا كثير في القرآن.

ـ وكذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٤.
(٢) تفسير البغوي ٥/ ١٩٧، زاد المسير ٤/ ٢٤٥.
(٣) تفسير الطبري ١٨/ ١١٧.

تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف]، ثم قال بعدها: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِىٓ ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٨٢].

فهل هناك فرق بين تستطع وتسطع في الآيتين؟

الجواب كما سبق والله أعلم، فلما لم يكن قد أخبر الخضر موسى عليه السلام بتفسير هذه الحوادث التي حدثت لهما كان الفعل [تَسْتَطِعْ] زائدَ المبنى ليدل على شِدَّة المعاناة التي كابَدَها موسى عليه السلام في عدم الصبر والاستطاعة؛ فلما أخبر الخضر موسى عليه السلام بالعلل وبيَّن له سبب أفعاله السابقة سَهُل الأمر على موسى فجاء الفعل [تَسْطِعْ] قليل المبنى ليَدُل على قلة المعنى وقلة المعاناة التي كابدها موسى؛ لأنه قد عَرَف السبب وخَفَّ عنده الألم.

وكذلك فإن المقامَ الأول مقامُ شرح وتوضيح، والمقامَ الآخر مقامُ مفارقة وتوديع، فناسب المقال المقام.

ومن جهةٍ أخرى: مراعاة معنى التنويع في الألفاظ واستعمالها في الأوجه الصحيحة لها ومراعاة الخفة في النطق لمناسبة السياق من أعظم ما يقف عنده المسْلِم مسَلِّماً لعظمة هذا القرآن وإعجازه بحروفه وكلماته ومعانيه.

قال النسفي: «﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف: ٨٢] حذف التاء تخفيفاً»(١).

وفي زيادة هذا الحرف أو تركه بيان الدقة في علم القراءات، حيث لم يختلف القراء في قراءتها بهذه الصيغ، فكل حرف في موضعه للدلالة على معنى أراده الله جل في علاه(٢).

ومن الأمثلة كذلك لفظ [أَسْمِعْ] و[اسْتَمَعَ]:

عند تأمل الآيات التي فيها [أَسْمِعْ] و[اسْتَمَعَ] يظهر ـ والله أعلم ـ أن زيادة التاء في لفظ [اسْتَمَعَ] إشارةٌ إلى أهمية المُستَمَع إليه، وفيه معنى الزيادة على السماع بالإصغاء والانتباه، بينما لفظ [أَسْمِعْ] في سياق الآيات ـ مجرداً

(١) تفسير النسفي ٢/ ٢٥١.
(٢) ينظر: الحجة في القراءات السبع ٢٣٢.

من التاء ـ يدل على أن مجرد السماع كافٍ لتنفيذ المطلوب.

ـ تأمل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [الحج: ٧٣].

فالأمر في هذه الآيات فيه حث على السماع والفهم والإدراك لما يسمع كما يدل السياق.

ـ أما الآيات التي جاءت دون التاء فكقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣].

ـ وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾ [البقرة].

ـ وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾ [النساء].

قال الشنقيطي: «وقوله: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]؛ لأن السمع الذي لا ينافي العصيان هو السمع بالآذان دون السمع بمعنى الإجابة»(١).

❐ ثانياً: تكرار الحرف لزيادة المعنى:

ـ قال تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾ [الشعراء].

قال: كُبْكِبُوا، ولم يقل: كُبُّوا، والكبكبة تكرير الكب، فالتكرير في الحرف دل على التكرير في المعنى.

قال الطبري: «وأصل كُبْكِبُوا: كبِّبُوا، ولكن الكاف كرّرت»(٢).

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١/ ٤١.
(٢) تفسير الطبري ١٩/ ٣٦٧.

وقال مكي: «وحقيقة معنى كُبْكِبُوا: تكرير الانكباب، كأنه إذا ألقي ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فيها نعوذ بالله منها»(١).

وقال ابن جزي(٢): «أي: كَبَّهم الله في النار مرة بعد مرة»(٣).

وقال ابن عاشور: «ومعنى فَكُبْكِبُوا: كُبوا فيها كبًّا بعد كَب، فإنَّ كُبْكِبُوا مضاعف كبُّوا بالتكرير، وتكرير اللفظ مفيدٌ تكرير المعنى»(٤).

وهذا هو ما بيَّنه القرآن كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨﴾ [الملك: ٨].

وفي اللفظ (كُبكِبوا) تحقير لهم كأنهم شيء كريه كُبَّ من إناء(٥).

ومن أمثلة تكرار الحرف لزيادة المعنى:

ـ قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٥١﴾ [يوسف].

فحصحص: أصله حصّ(٦)، وتكرار الحرف هنا لإفادة شدة الظهور والوضوح بعد الكتمان.

قال ابن سيده: «والحَصْحَصَة: بيان الحق بعد كِتْمَانه»(٧).

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية ٨/ ٥٣٢٤.

(٢) هو: محمد بن أحمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي، أبو القاسم الغرناطي، فقيه من العلماء بالأصول واللغة، من مصنفاته: «التسهيل لعلوم التنزيل»، و«القوانين الفقهية في تلخيص مذهب المالكية»، و«تقريب الوصول إلى علم الأصول»، و«الفوائد العامة في لحن العامة»، مات سنة (٧٤١هـ)، له ترجمة في: الدرر الكامنة ٣/ ٣٥٦، نفح الطيب ٣/ ٢٧٠.

(٣) تفسير ابن جزي ٢/ ٢٩٥.

(٤) التحرير والتنوير ١٩/ ١٥٢.

(٥) ينظر: الجدول في إعراب القرآن ١٩/ ٩٣، التحرير والتنوير ١٩/ ١٥٢.

(٦) ينظر: معجم مقاييس اللغة ٢/ ١٢.

(٧) المخصص٣/ ٤١١، وينظر: المحيط في اللغة ٢/ ٢٩٨، تفسير القرطبي ٩/ ٢٠٨.

وقال الماوردي[١]: «وأصله: مأخوذ من قولهم: حَصّ شعره إذا استأصل قطعه فظهرت مواضعه، ومنه الحِصَّة من الأرض إذا قُطِعَت منها؛ فمعنى: حصحص الحق؛ أي: انقطع عن الباطل بظهوره وبيانه، وفيه زيادة تضعيف دل عليها الاشتقاق»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقَّة].

الصَرْصَرْ: الشديدة الصوت والبرودة، وتكرير الصاد والراء إشعار بتكرارها وشدتها.

قال ابن كثير: «﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصِّلت: ١٦]، قال بعضهم: هي الشديدة الهبوب، وقيل: الباردة، وقيل: هي التي لها صوت، والحق أنها متصفة بجميع ذلك»[٣].

قال ابن عاشور: «والصَرْصَرْ: الريح العاصفة التي يكون لها صرصرة؛ أي: دوي في هبوبها من شدة سرعة تنقلها، وتَضْعِيفُ عَينِه للمبالغة في شدتها بين أفراد نوعها كتضعيف كُبْكِب للمبالغة في كبَّ، وأصله صَرَّ؛ أي: صاح»[٤].

❐ ثالثاً: النقل من وزن إلى وزن أعلى منه لزيادة المعنى:

وهذا أعم مما سبق فإذا كان اللفظ على وزن من الأوزان، ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه، فلا بد أن يتضمن معنىً أكثر مما تضمنه أولاً؛ لأن الألفاظ دالة على المعاني، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت الزيادة زيادة في المعاني، وفي هذا النوع إشارة للزيادة والمبالغة[٥].

---

(١) هو: علي بن محمد بن حبيب أبو الحسن الماوردي البصري الشافعي، أقضى قضاة عصره، له من المؤلفات: النكت والعيون في التفسير، والأحكام السلطانية، والحاوي الكبير في فقه الشافعية، مات سنة (٤٥٠هـ)، له ترجمة في: طبقات الشافعية ٣/ ٣٠٣، طبقات السيوطي ٢٥، شذرات الذهب ٣/ ٢٨٥.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٤٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٧/ ١٦٩. وينظر: إعراب القرآن وبيانه ١٠/ ١٨٩.

(٤) التحرير والتنوير ٢٤/ ٢٥٩.

(٥) ينظر: إعراب القرآن وبيانه ٢/ ١٦١.

قال الزركشي: «واعلم أن اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أعلى منه فلا بد أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولاً»(١).

ومن أمثلة زيادة الوزن لزيادة المعنى:

ـ قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، عند تأمل اللفظتين كسبت واكتسبت، ترى زيادة حروفٍ في الثاني، والمراد: كسبت من الخير، واكتسبت من الشر؛ بدليل قوله في الموضع الأول: [لَهَا]، وفي الموضع الثاني: [عَلَيْهَا](٢)، وذلك ـ والله أعلم ـ لمَّا كانت السيئة ثقيلةً وفيها تكلف زِيدَ في لفظ فعلها(٣)، ومن لطف الله ورحمته أن الثواب على أقل قليلٍ من الطاعة؛ فلهذا أُتِيَ بالثلاثي المجرد.

قال ابن جني: «قول الله ﷻ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ تأويل ذلك: أن كسب الحسنة بالإضافة إلى اكتساب السيئة أمر يسير ومستصغَر؛ وذلك لقوله عزَّ اسمه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] أفلا ترى أن الحسنة تَصغُر بإضافتها إلى جزائها صِغر الواحد إلى العشرة، ولمَّا كان جزاء السيئة إنما هو بمثلها لم تحتقر إلى الجزاء عنها، فعُلِم بذلك قوّة فعل السيِّئة على فعل الحسنة ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾﴾ [مريم] فإذا كان فعلُ السيئة ذاهباً بصاحبه إلى هذه الغاية البعيدة المترامية، عُظِّم قدرها وفُخِّم لفظ العبارة عنها فقيل: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ فزِيد في لفظ فِعل السيئة وانتُقِص من لفظ فعل الحسنة لما ذكرنا»(٤).

ـ وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر]، وقوله تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۢ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر].

بين قَدَرَ واقْتَدَرَ فرق واضح؛ فمعنى اقْتَدَرَ أقوى من معنى قَدَرَ.

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٤.
(٢) ينظر: زاد المسير ١/ ٢٨٣.
(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٤.
(٤) الخصائص٣/ ٢٦٥.

قال ابن الأثير[١]: «كقَادِرٍ ومُقْتَدِر: فإن قادراً اسم فاعل قَدَرَ وهو ثلاثي، ومقتدراً اسم فاعل اقْتَدَرَ وهو رباعي؛ فلذلك كان معنى القدرة في اقْتَدَرَ أشد من معنى القدرة في قَدَرَ وهذا لا نزاع فيه»[٢].

وقال الزركشي: «مقتدر أبلغ من قادر لدلالته على أنه قادر متمكن القدرة لا يرد شيء عن اقتضاء قدرته، ويسمى هذا: قوة اللفظ لقوة المعنى»[٣].

ـ ومن الأمثلة كذلك قوله تعالى: ﴿فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ﴾ [النساء: ٦].

في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ﴾ استعفّ أبلغ من عف، وكأن المراد ـ والله أعلم ـ الحثُّ على زيادة العفة[٤].

ومن هنا نستنبط أن كل زيادة في صيغِ المبالغة فهي داخِلَة في هذه العادة؛ لأنها نَقْلٌ من وزنٍ إلى وزنٍ أعلى منه.

والأمثلة في القرآن كثيرة، ومنها:

ـ قوله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح].

فإن [غَفَّارًا] أبلغ في المغفرة من [غَافِرٍ] لأن [فعَّالاً] يدل على كثرة صدور الفعل، و[فَاعِلٌ] لا يدل على الكثرة.

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فالتواب هو الذي تتكرر منه التوبة مرة بعد مرة وهو أبلغ من [التائب] من تابَ يتوبُ فهو تائب؛ أي: صدرت منه التوبة مرة واحدة، فإذا قيل: [تَوَّابٌ] كان صدور التوبة منه مراراً كثيرة.

---

(١) هو: نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد أبو الفتح الشيباني الموصلي، ضياء الدين ابن الأثير، من مصنفاته: «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر»، و«الوشي»، و«كتاب الأنوار في نعت الفواكه والثمار»، مات سنة (٦٣٧هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٢/ ١٦١، العبر ٥/ ١٥٦، سير أعلام النبلاء ٢٣/ ٧٣.

(٢) المثل السائر ٢/ ٥٧.

(٣) البرهان ٣/ ٣٤.

(٤) ينظر: الجدول في إعراب القرآن ٤/ ٤٤٢.

ـ وقوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة].

استعمل هنا صيغتا المبالغة [سَمَّاعُونَ]، و[أَكَّالُونَ] لبيان الزيادة في المعنى، والزيادةِ في التقبيح والذم، فلم تُستَعمل في القرآن إلا في وصف الإنسان، وفي مقام الذمّ فقط، وهذا المعنى لا يؤديه صيغة: سامع وسميع.

ونستنبط كذلك أن زيادة الحرف بالتضعيف تدل على زيادة المعنى، ومن أمثلة المضعَّف في القرآن الذي يدخل في هذه العادة ما يأتي:

ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المائدة].

إذا تأملنا الأفعال المضعفة: [يقتَّلوا، يصلَّبوا، تقطَّع] وجدنا فيها من الزيادة والمبالغة في المعنى ما لا يوجد في الأفعال المخففة، والله أعلم.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

في قوله تعالى: [فَقَطَّعَ] التضعيف في هذا الفعل يدل على شدة التقطيع والتمزيق وهو ما لا يؤديه الفعل بدون تضعيف.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾ [إبراهيم].

ـ وقال سبحانه: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص].

يدل التضعيف في قوله: [مُقْرِنِينَ] على متانَةِ هذه الأصْفَاد وإحْكَام التقييد والتنكيل، وذلك لأن الفعل زاد في المبنى فزاد في المعنى لأن [قَرَّن] أبلغ وأشد في الإحكام من [قَرَنَ].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ﴾ [يوسف: ٢٣].

عند تأمل الفعل (غَلَّقَت) معناه أحكمت غلق الأبواب وبالغت في إحكام

غلقه؛ لأن (غَلَّقَ) محول عن غَلَقَ فلما زيد في مبنى الكلمة زيد في معناها؛ لأن الألفاظ أدلة على المعانى وأمثلة للإبانة عنها.

وعليه:

فزيادة المبنى لا بد أن يكون لها أثر في المعنى إما بتقويته أو بتغيير معناه.

وليس هذا باطراد؛ فالسياق له أثر في تحديد المراد، وهو واضح لمن تأمله في كتاب الله تعالى.

ولذلك فتَنْزيل هذه العادة بالوصف أحق منها بالاسم؛ لأن الوصف مشابه للفعل، وهي في الفعل أقعد منها في الاسم.

وعلى هذا فلا يدخل في هذه العادة مثلاً: زيادة المَبْنَى في التصغير؛ لأنها تَدُل على النقص في المصغَّر، وكذا الأسماء التي لا معنى للفعل فيها، فإنها إذا زيدت تغيَّر معناها؛ لأن المراد منها منحصر في تعيين المسمى، والله أعلم.

قال ابن الأثير: «والزيادة في الألفاظ لا توجب زيادة في المعاني إلا إذا تضمنت معنى الفعلية لأن الأسماء التي لا معنى للفعل فيها إذا زيدت استحال معناها»[(١)].

كما أنه لا بد أن تُقَيَّد دلالةُ التضعيف على زيادة المعنى بما إذا نقل المضعَّف من صيغة إلى صيغة أعلى منها في الوزن؛ كنقل الثلاثي إلى الرباعي، إما إذا كان التضعيف هو أصل الكلمة فلا يدخل فيما نحن بصَدَدِه.

ولذا فلا يدخل في هذه العادة قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]، فلم يُرَد به التكثير، بل المراد: الخطابُ المطلق؛ لأن هذه اللفظة [كَلَّمَ] رباعية وليس لها ثلاثي لتنقل منه، ولو كانت بمعنى جرَّح لكانت للمبالغة؛ لأن لها ثلاثياً وهو كلَم مخففاً؛ أي: جرَح.

---

(١) المثل السائر ٢/٥٧.

ولا يدخل أيضاً قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾ [المزمل: ٤]، فرتّل لا ثلاثي لها تنقل منه إلى الرباعي، بل هي رباعية موضوعة لصفة معينة من القراءة[١]، والله تعالى أعلم.

المطلب الثالث

حذف بعض الحروف

أسلوب القرآن لا يماثله أسلوب، ومن تَمرَّس في أساليب اللغة وطرائقِها في التعبير يجد للقرآن لذّة وتميزاً وأسراراً في ذكره وحذفه، تفْتَح الآفاق للدراسة والتأمل، ولا بد أن نعلم أن الحذف في القرآن لا ينسب إلى القرآن ذاته، ولكن إلى تركيب اللغة، وهو نوع من اللغة والبلاغة، ويزيد جمالاً أنه في كتاب الله.

وعادة القرآن الكريم حذف بعض الحروف التي تذكر على الأصل في اللغة.

وهذا الذكر والحذف لحكمة اقتضاها سياق القرآن قد نعلمها أو جزءاً منها، وكثيراً ما تغيب عنا.

ومن أمثلة ذلك:

❐ أولاً: عادة القرآن إسقاط حرف النداء [يا] في آيات دعاء العباد لربهم:

والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

ـ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].

ـ وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾ [البقرة: ٢٥٠].

ـ وقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّى ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾ [آل عمران: ٣٥].

---

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٣٦، إعراب القرآن وبيانه ٧/ ١٢.

ـ وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المائدة].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧].

ـ وقوله تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح]، وغيرها من الآيات.

ويتضح هذا أكثَر عند تأمل نداء نوح لابنه في قوله سبحانه: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢]، جاء هنا بحرف النداء ولم يأت به في ندائه لربه حيث قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥]، وهذا هو المناسب لقرب الله تعالى من عباده، وحذف الأداة أدق تعبيرٍ عن هذا القرب.

وقد أشار الإمام مكي بن أبي طالب إلى هذه العادة وعلل بأن الحذف تعظيم لله، فقال: «ونداء الرب قد كَثُر حذف [يا] منه في القرآن، وعلة ذلك أن في حذف [يا] من نداء الرب تعالى معنى التعظيم له والتنزيه وذلك أن النداء فيه طَرَف من معنى الأمر»(١).

ومثله ذكر السمين الحلبي(٢)، والزركشي(٣).

وليس في القرآن نداءٌ لله تعالى بحرف النداء [يا] إلا في موضعين؛ ولا تنتقض هذه العادة في القرآن لأنهما جاءا على سبيل الشكاية لا لمعنى الطلب.

وهما: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان].

وقوله جل وعلا: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الزُّخرف].

وهذا مما اختص به النبي ﷺ؛ لبيان علو شأنه، وشأن ما يُشتَكَى منه،

(١) مشكل إعراب القرآن ١/ ٢٨٥.
(٢) الدر المصون ٦/ ٣٣٦.
(٣) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢١٣.

ومن رُفِعَت إليه الشكوى، وفيهما معنى نداء المستغيث من أجل رسالته، لا من أجل نفسه.

فذكرها في نداء الرب سبحانه: إشارة إلى شدة حاجة المنادِي لما يدعو به، والتعبير عن استغاثته وتلهفه وتألمه ونحو ذلك من المعاني، وهذا هو الظاهر في الموضعين الذين ذُكِرت فيهما أداة النداء للرب جل وعلا.

ففي الآية الأولى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان].

ذَكَر الرسول ﷺ حرفَ النداء لربه وهو أقرب إليه من حبل الوريد؛ ليَمُدَّ صوته بأداة النداء حُزْناً على قومه، وحِرْصاً منه عليهم، وحِكَايةً لحالهم، وليس فيه طلب من ربه.

وفي الآية الثانية: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الزُّخرف].

لمَّا ظَهَر عنادُ القوم، وبُعدِهم عن الإيمان بالله، عبَّر بأداة النداء لبيان حُزنه من أجلهم، مع حِرصِه عليهم ورَغْبَتِه في إيمانهم، فهو يَحْكِي ويشكُو حالهم إلى خالقهم، وليس في الآية طلَبٌ من ربه، ليدعو دون أداةٍ كما هي عادة القرآن، والله سميع قريب.

إذن حذف حرف النداء إشارة إلى قرب الله من خلقه، قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وحذف الأداة أدق تعبيرٍ عن هذا المعنى، وفيه تنبيه على استشعار القرب عند قراءة ما حُذِفَت فيه أداة النداء، وعند دعاء الله سبحانه، وهذا سبب لتدبر كلام الله تعالى.

قال الشاطبي: «فإذا أتي بالنداء من العباد إلى الله تعالى؛ جاء من غير حرف فلا تجد فيه نداء الرب تعالى بحرف نداء ثابت؛ بناء على أن حرف النداء للتنبيه في الأصل، والله منزه عن التنبيه»[(١)].

(١) الموافقات ٢/ ١٦٣.

وفي الحذف أيضاً تعظيم لله جل وعلا وتنزيه له من أي نقص ﷻ؛ لأن في النداء طَرَفٌ مِن معنى الأمْر[١].

وإذا ذُكِرت أداة النداء من العباد لربهم فهو حكاية للحال، ومدُّ الصوتِ بـ [يا] إشارة للألم والاستغاثة، ونحو ذلك من المعاني، والله تعالى أعلم.

❐ ثانياً: عادة القرآن حذف آخر حرف في الآية مراعاة للفاصلة، ولأسرار أخرى:

مثال ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق]، وفي الآيات الأخرى علقة، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨﴾ [القيامة]، ففي حذف التاء مراعاة للفاصلة، إضافةً إلى دلالتها على الجمع لمناسبة ما قبلها.

قال القاسمي: «وإنما قال: ﴿عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: ٢]، دون علقة كما في الآية الأخرى، لرعاية الفواصل، ولأن ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، مراد به الجنس فهو في معنى الجمع؛ فلذا جمع ما خلق منه ليطابقه»[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضُّحى].

قال سبحانه: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ ولم يَقُل [قلاك] مراعاة للفاصلة[٣]، مع كمال المعنى حيث إن المنْفِيَّ في الآية أمران: نَفَى التوديع وهو ما يكون بين الأحباب والأصحاب، ونَفَى القِلَى وهو ما يكون بين المتباغضين[٤]، ففي ذكر ضمير المخاطب في التوديع تكريم لرسول الله ﷺ، بخلاف القِلَى فالتكريم في حذف الضمير وعَدَمِ كَوْن الخطاب مباشرةً للرسول ﷺ؛ فأُكْرِم ﷺ بالذكر وبالحذف.

---

(١) ينظر: مشكل إعراب القرآن ١/ ٢٨٥، البرهان ٣/ ٢١٣.
(٢) تفسير القاسمي ٩/ ٥٠٨.
(٣) ينظر: البرهان ٣/ ١٦٧، الإتقان ٣/ ١٩٢.
(٤) ينظر: العين ٢/ ٢٢٣، الزاهر للأزهري ١٨٥، لسان العرب ٨/ ٣٨٠، تاج العروس ٣٩/ ٣٤٣.

ـ ومثله قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضُّحى].

المعنى: فآواك وهداك.

ولكن حُذِف الضمير لأمور:

١ ـ مراعاةً للفاصلة[١].

٢ ـ ولكمال دلالة الآية على المراد، فالمعنى ـ مع الحذف ـ أعمُّ، حيث أفاد أن الله آوَى النبي ﷺ وآوى به، وهدَى النبي ﷺ وهدَى به.

فشَمِل اللفظُ بحذف الضمير العمومَ في المعنى ـ وهذا أكثرُ دلالةً ـ مع جمال اللفظ والصوت في ختام الآيات.

قال ابن عاشور: «وحذفت مفاعيل: ﴿فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾، ﴿فَهَدَىٰ ۝٧﴾، ﴿فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ للعلم بها من ضمائر الخطاب قبلها، وحذفها إيجاز، وفيه رعاية على الفواصل»[٢].

ـ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ [طه].

حُذفَ آخرُ الآية؛ فالتقدير: وما هداهم، ولكن هذا التقدير يحتمل أن فرعون ما هدى قومه ولكن هدى غيرهم.

قال ابن عباس: «﴿وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾؛ أي: ما هدى نفسه بل أهلك نفسه وقومه»[٣].

فلإطلاق نفْيِ هِداية فرعون لنفسه ولقومه ولغيرهم جاء اختيار حذف الضمير مع مراعاة الفاصلة، فاكتمل جمال اللفظ وكمال المعنى. والله تعالى أعلم.

ومن ذلك: حذف ياء المتكلم مراعاة للفاصلة.

ـ مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـَٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠﴾ [البقرة: ٤٠].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـَٰىَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١﴾ [البقرة: ٤١].

---

(١) ينظر: أضواء البيان ٤/ ٧٣.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٥٤.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٢٢٩.

ـ وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون].

وهذا الحذف لرعاية الفواصل، والخفة في النطق، وكمال المعنى ووضوحه، فحذف الياء فيه معنى الدوام والاستمرار.

قال الفراء: «قال الله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الكفر، ﴿وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ الإسلام، ولم يقل ديني؛ لأن الآيات بالنون فحذفت الياء، كما قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾﴾ [الشعراء]»(١).

وأمثلة هذا في القرآن كثيرة ومنها على سبيل الإشارة:

ـ قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ [يوسف].

ـ وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنبياء].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء].

ـ وقوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزُّمر].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [يس].

ـ وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نوح].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ [المرسلات].

قال ابن عاشور: «﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾ [فاطر]... وحُذفت ياء المتكلم تخفيفاً، ولِرعاية الفواصِل في الوقف؛ لأن الفواصل يعتبر فيها الوقف»(٢).

وعند تأمل هذا الحذف لمراعاة أواخر الآيات نجد إثبات ياء المتكلم غالباً إذا كانت الكلمة في وسط الآية.

---

(١) معاني القرآن ٣/ ٢٩٧.

(٢) التحرير والتنوير ٢٢/ ٣٠٠.

ـ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٠].

ـ وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود].

ـ وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ [يوسف]، وغيرها.

ومن ذلك: حذف ياء المنقوص مراعاة للفاصلة:

من المعلوم أن ياء المنقوص المعرف بأل لا تحذف في حالتي الرفع والجر، ولكن حُذِفت في القرآن مراعاة لجمال الصوت والفاصلة.

قال ابن مالك[١]:

وَحَذْفُ يَا الْمَنْقُوصِ ذِي التَّنْوِينِ ما ... لَمْ يُنْصَبَ اوْلَى مِنْ ثُبُوتٍ فَاعْلَمَا

وَغَيْرُ ذِيْ التَّنْوِينِ بِالْعَكْسِ وَفِي ... نَحْوِ مُر لُزُومُ رَدِّ الْيَا اقْتُفِي[٢]

أبان ابن مالك أن المنقوص غير المنون ـ المعرف بأل ـ يكون الوقف عليه رفعاً وجراً بإثبات الياء نحو: شرُّ القلوبِ القلبُ القاسي.

ولا شك أنه يجوز الوقف عليه بحذفها، كما هي قراءة حفص مع الجمهور[٣].

ومن أمثلة ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد].

ـ وقوله سبحانه: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: ١٥].

---

(١) هو: جمال الدين محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، المالكي حين كان بالمغرب، الشافعي حين انتقل إلى المشرق، أحد الأئمة في علوم العربية، له مصنفات كثيرة، منها: «الألفية في النحو» وهي الأكثر عناية عند العلماء من بين أراجيزه، ومن كتبه: «الأفعال وتصريفها»، و«العروض»، وله قصيدة دالية في القراءات، وغيرها، مات سنة (٦٧٢هـ)، له ترجمة في: غاية النهاية ٢/ ١٨٠، طبقات الشافعية ٥/ ٢٨.

(٢) الألفية بيت ٨٨٥ ـ ٨٨٦.

(٣) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٢٤.

ـ وقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ [غافر: ٣٢].

وأما المنوَّن ـ وهو المجرد من أل والإضافة ـ فالجمهور مع حفص على حذف الياء[١].

ـ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ [الرعد: ٧].

ـ وقوله سبحانه: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١١].

ـ وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد: ٣٤].

ـ وقوله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

قال مكي في المُنَوَّن: «والحذف والإثبات لغتان للعرب والحذف أكثر، وهو الاختيار؛ لأن عليه الأكثر»[٢].

وأقول: هي عادة القرآن مراعاةً للفاصلة.

❐ ثالثاً: عادة القرآن حذف الحرف للتوسعِ في المعنى، واحتمالِ أكثر من حرف:

تركُ حرفٍ يحتمل مكانُه أكثرَ من حرفٍ يدل على سعة اللغة واحتمالِ جميع المعاني.

ـ كما قال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [النمل: ٩١].

ـ وقال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [غافر: ٦٦].

يُحتمَل حذف حرف الباء، ويحتمل حذف حرف اللام؛ لأن الأمر عادة يأتي مع حرف الباء كما في قوله تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ويأتي كذلك مع حرف اللام كما في قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾ [الزُّمر]، فلمَّا لم يُذكر أحدُهما دلَّ على عدَم التخصيصِ وإرادة جميع المعاني.

ـ ومثال آخر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

---

(١) ينظر: التيسير في القراءات السبع ١٠٨.

(٢) الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٢١.

في الآية حرف جر محذوف، فيُحتَمل حذفُ حرف الجر اللام [لئلا يقولوا]، ويُحتمل حذف حرف الجر الباء [بأن لا يقولوا]، ويحتمل حذف حرف الجر على [على أن لا يقولوا]، ومع حذف الحرف تتسع الآية لجميع هذه المعاني، والله أعلم.

وبعد هذا؛ فالحذف والزيادة خلاف الأصل؛ فكُلَّمَا أمكن أن يكون الكلام مستقيماً دون تقديرِ محذوفٍ كان ذلك أولى، وكذلك إذا استقام الكلام دون جعل الكلمة زائدة، فهذا أصل متفق عليه[١].

قال الزركشي: «فصل في أن الحذف خلاف الأصل، وعليه ينبني فرعان:

أحدهما: إذا دار الأمر بين الحذف وعدمه كان الحمل على عدمه أولى؛ لأن الأصل عدم التغيير.

والثاني: إذا دار الأمر بين قلة المحذوف وكثرته كان الحمل على قلته أولى»[٢]. والله تعالى أعلم.

(١) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٢/ ٤٧١.
(٢) البرهان ٣/ ١٠٤.

الفصل الثاني

عادات القرآن في الألفاظ

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: اختيار اللفظ المناسب.
- المبحث الثاني: استعمال بعض الألفاظ لمعنى خاص.
- المبحث الثالث: نيابة بعض الألفاظ عن بعض.

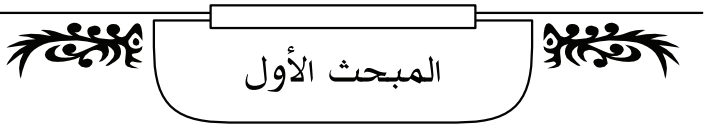

اختيار اللفظ المناسب

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: اختيار اللفظ المناسب للسياق.**
- **المطلب الثاني: اختيار الألفاظ الجامعة.**
- **المطلب الثالث: مراعاة المناسبة لألفاظ الفواصل.**

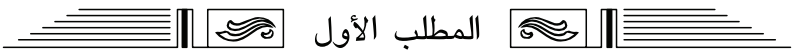

اختيار اللفظ المناسب للسياق

ليس التناسب في القرآن خاصاً بالحروف، بل هو شامل لألفاظه وهذا أمر معلوم مشهود، فعادة القرآن اختيار اللفظ المناسب حسب دلالة السياق، وأمثلة ذلك لا تحصى، فكل كلمة في القرآن تصلح مثالاً لهذه العادة.

قال ابن القيم: «وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين»[(١)].

ـ قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [البقرة: ١٧].

ولم يقل [بضيائهم] مع ما فيه من بديع المطابَقَة؛ لأن ذهابَ النور ذهابٌ للضياء من باب أولى دون العكس؛ فصار أبلغ في النفي[(٢)].

قال الزرقاني[(٣)]: «ومن شواهد ما نذكر أننا نلاحظ في كثير من ألفاظ

---

(١) جلاء الأفهام ٢٣٣.
(٢) ينظر: كشف المعاني ٩٦.
(٣) هو: محمد عبد العظيم الزرقاني، من علماء الأزهر بمصر، تخرج من كلية أصول =

القرآن أنها اختيرت اختياراً يتجلى فيه وجه الإعجاز من هذا الاختيار، وذلك في الألفاظ التي نمر بها على القرون والأجيال منذ نزل القرآن إلى اليوم، فإذا بعض الأجيال يفهم منها ما يناسب تفكيره ويلائم ذوقه ويوائم معارفه، وإذا أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ عينها غير ما فهمته تلك الأجيال، ولو استبدلت هذه الألفاظ بغيرها لم يصلح القرآن لخطاب الناس كافة، وكان ذلك قدحاً في أنه كتاب الدين العام الخالد، ودستور البشرية في كل عصر ومصر، فسبحان من أنزل هذا القرآن مشبعاً لحاجات الجميع، وافياً تجارب الجميع، ملائماً لأذواق الجميع، متفقاً ومعارف الجميع، مما يدل دلالة واضحة على أنه كلام الله وحده أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً»[1].

ومن تأمل كلام الله تعالى في السياقات المتشابهة يجد لفظاً في بعضها يختلف عن الآخر مع أنه يشاركه في المعنى، فلا يَشُك أنه أمرٌ مقصود في كتاب الله، واختيارٌ لكل لفظٍ في مكانه المناسب، ليدل على أعلى مقامات البلاغة ومراتب الإعجاز.

ومن الأمثلة على دقة اللفظ ومناسبته للسياق في القرآن ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصِّلت: ٣٩].

هل هناك فرق بين الأرض الهامدة والأرض الخاشعة؟.

لا شك في الفرق بينهما، والتأمل في سياق الآيات يزيد ذلك تأكيداً:

١ ـ فلفظ الآية الأولى: [هَامِدَةً] جاء قبلها بداية خلق الإنسان ومراحل نموه.

= الدين، وعمل بها مدرساً لعلوم القرآن والحديث، ومن أشهر كتبه: «مناهل العرفان في علوم القرآن»، مات بالقاهرة سنة (١٣٦٧هـ)، له ترجمة في: الأعلام ٦/ ٢١٠.

(١) مناهل العرفان ٢/ ٢٢٢.

ولفظ الآية الثانية: [خَاشِعَةً] قبلها تسبيح الملائكة والخضوع لله، وهي من مواضع سجود التلاوة، وهذا تناسب تام.

٢ ـ ومن حيث اللغة **فالأرض الهامدة** التي لا يكون فيها حياة ولا نبت فهي يابسة مجدبة قاحلة[١] ومن قدرة الله إذا نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت.

والأرض الخاشعة هي الأرض التي فيها حياةٌ ونبات، ولكن لتأخر المطر أوشك نباتها على الهلاك.

ولذا قال في **آية سورة الحج**: ﴿وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾ [٥]، إشارة إلى أن الأرض قاحلة جرداء لا نبات فيها، وبعد نزول الماء أنبتت من كل زوج بهيج.

بينما في **آية سورة فصلت** ﴿إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٣٩﴾ [٣٩]، لم يأت لفظ [أَنْبَتَتْ] إشارةً إلى أن النبات موجود، ولكنه بحاجة إلى الماء ليستأنف الحياة من جديد[٢].

٣ ـ كلتا الآيتين دليل على البعث بعد الموت لكن ـ والله أعلم ـ **الأولى**: استدلال بأصل خلق النبات، وفي **الثانية**: استدلال بإعادة خلق النبات؛ فابتداء الخلق أعظم من إعادته، وكلاهما على الله يسير، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٧﴾ [الرُّوم]؛ لأن **الآية الأولى**: استدلال لمن شك في البعث بعد الموت، **وفي الثانية**: حكاية آيات الله في الكون، فكان اللفظ المناسب للسياق هو ما اختاره القرآن، ولله في ذلك حكمة.

ومن الأمثلة كذلك:

قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا

(١) ينظر: تاج العروس ٩/ ٣٤٦، لسان العرب ٣/ ٤٣٦، قال في «المعجم الوسيط»: الهامد من الأجسام في الكيمياء الفاقد للنشاط الكيماوي، وأرض هامدة: يابسة مجدبة ٢/ ٩٩٣.

(٢) ينظر: لسان العرب ٨/ ٧١.

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾﴾ [الكهف]، وقوله بعدها: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ [الكهف]، فما الفرق من الناحية البيانية بين قوله تعالى: ﴿أَمْرًا﴾ و﴿نُّكْرًا ﴿٨﴾﴾؟

النُّكْر أشدُّ من الإمْر استعظاماً بالعين وإنكاراً بالقلب[١]، ولذلك جاء تنزيل كل لفظ في المكان المناسب له، فوصف الله تعالى على لسان موسى للرجل الصالح خرق السفينة بأنه شيء إمْر، ووصف قتل الغلام بأنه شيء نُكر، وذلك لأمور منها:

١ ـ أن خرقَ السفينة أقلُّ من قتل الغلام أثراً في النفس، وخرقُ السفينة لا يتلفها[٢].

٢ ـ كما أنه هو الحدَثُ الأول لموسى، وقَتْلُ الغلام إتلاف وإزهاق وقد جاء ثانياً، فناسب السياق التعبير بما هو أشد من الأول[٣].

٣ ـ عناية القرآن بعدم التكرار المجرد عند اختيار الألفاظ، ومراعاة الصوت والأداء، والتغيير في الألفاظ لشَدِّ السامع وإثْرَائه بالعبارات ذات الدلالات الأكثر تأثيراً في آيات القرآن، مع أنه لا يحسن مجيء أحد الوصفين في مكان الآخر، فكل لفظ في مكانه المناسب للسياق على الإطلاق، والله أعلم.

ومن الأمثلة كذلك:

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: ٢٠] استعمال لفظ [حَيَّةٌ]، وفي قوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء]، وقوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف]، استعمال لفظ [ثُعْبَانٌ].

وعند التأمل يتبين دقة اللفظ في كل آية، فقد جاء في القرآن إلقاء موسى لعصاه ثلاث مرات:

---

(١) ينظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٣٥٦.
(٢) ينظر: ملاك التأويل ٢/ ٣٢٢، غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٤/ ٤٥٠.
(٣) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٦/ ٤٤٣٢.

الأولى: عند قدوم موسى إلى مصر إذ رآى ناراً فجاء إليها فناداه الله أن ألق عصاك.

الثانية: عند إقناع فرعون بصدق رسالته.

الثالثة: أمام السحرة وما سحروا به أعين الناس.

فالموقف الأول: لما ناداه الله وأمره أن يلقي عصاه فإذا هي حية تهتز وتسعى، فأمره الله أن لا يخاف وأن هذه معجزة لإثبات صدق رسالتك إلى فرعون، أشار الله إلى هذا الموقف في غير ما آية كقوله تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل]، ولكن في آية واحدة منها استعمل لفظ [حَيَّةٌ] وهي قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه]، وهذا تفسير للآية السابقة.

قال ابن سيده: «والجانُّ: حَيَّة دَقِيق أمْلَسُ لا يَضُر أحداً، وربَّما كان في بيوت الناس لا يَقتُلونه»[(١)].

وقال البيضاوي[(٢)]: «﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ [النمل: ١٠]، حية خفيفة سريعة»[(٣)].

في هذا الموقف أمَرَ الله تعالى موسى أن يلقي عصاه وهو في الواد المقدس، فتحولت العصا حية صغيرة؛ فيرى موسى المعجزة ولا يخاف منها، وهذا في أول الأمر.

والموقف الثاني: إلقاء العصا أمام فرعون والمراد إخافته ليستيقن بصدق موسى عليه السلام، فجاء اختيار لفظ [ثُعْبَانٌ] حين تحولت العصا، والثعبان في اللغة: الحية الكبيرة، وهكذا جاء ذكر الثعبان في القرآن في هذا الموقف؛ أمام فرعون في موضعين كما في قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾

---

(١) المخصص ٢/ ٣١٢.

(٢) هو: عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، أبو سعيد الشيرازي الشافعي قاض ومفسر، من مصنفاته: «أنوار التنزيل وأسرار التأويل في التفسير»، و«طوالع الأنوار في العقيدة»، مات سنة (٦٨٥هـ)، له ترجمة في: طبقات الداوودي ١/ ٢٤٨، البداية والنهاية ١٧/ ٦٠٦.

(٣) تفسير البيضاوي ٤/ ٢٦٠، وينظر: التسهيل ٢/ ٣٠٢، الكليات ٥٥٢.

[الأعراف]، وقوله سبحانه: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾ [الشعراء].

قال النحاس: «الثعبان: الكبير من الحيات»(١).

وقال الكفوي: «﴿ثُعْبَانٌ﴾ حية عظيمة الجسم»(٢).

ففي أول الأمر انقلبت العصا حية صغيرة فيها الخفة والاهتزاز والسرعة، ثم لما اطمأن موسى وأرسله الله إلى فرعون المتكبر انقلبت العصا ثعباناً مبيناً، فناسب كل لفظ موضعه.

قال مكي: «وقيل: إن الله قلب له العصا في أول مرة جاناً، وهو الحية الصغيرة لئلا يخاف ويجزع، فلما أنس بها وأخذها وأرسلها، أرسله إلى فرعون، فألقاها في الحال الأخرى بين يدي فرعون فصارت ثعباناً مبيناً، والله أعلم»(٣).

وأما الموقف الثالث: فكان إلقاء العصا أمام السحرة الذين سحروا أعين الناس لم يذكر تحولها إلى ثعبان أو جانّ، بل قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأعراف].

وعند التأمل في دقة الألفاظ: نَجِد أن السحرة أوهَمُوا الناس بسحرهم أن الحبال تتحرك وتسعى، قال تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه]، فلن يؤثر في الناس تخويفهم بالجان، ولا بالثعبان، بل المراد هنا إقناع الناس بأن حبال السحرة تمثل الباطل، وأن عصا موسى معها الحق، ولذا قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف] الآيات.

فكلمة [جَانٌّ] وهي الحية الصغيرة، جاءت في القرآن مرتين فقط وكلاهما حين أمر الله موسى عليه السلام أن يلقي العصا في الوادي المقدس ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ

(١) معاني القرآن ٥/ ٧٥.
(٢) الكليات ٥٠٣، وينظر: البحر المحيط ٦/ ١٧٢، لسان العرب ١/ ٢٣٦.
(٣) الهداية إلى بلوغ النهاية ٨/ ٥٣٧٣.

حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه]، فالكلمة مناسبة للموقف، وكلمة ثعبان جاءت في القرآن مرتين فقط وكلاهما حين ألقى موسى عليه السلام العصا أمام فرعون، وهي الكلمة المناسبة للموقف؛ لأن الثعبان أكبر من الجآنّ وأكثر تخويفاً لفرعون، وهنا يقف المسلم عند هذه الدقة المتناهية في كلمات القرآن معظماً لكلام الله، مسروراً مستبشراً به.

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف ذُكِرت بألفاظ مختلفة: بالحية، والجآنّ، والثعبان؟ قلت: أمّا الحية فاسم جنس يقع على الذكر والأنثى والصغير والكبير، وأمّا الثعبان والجانّ فبينهما تناف: لأنّ الثعبان العظيم من الحيات، والجان الدقيق»(١)، والله تعالى أعلم.

ومن الأمثلة كذلك:

اختيار لفظ [الرب] في نداء العباد لربِّهم ودعائهم إياه.

- كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

- وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

- وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

- وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾ [ص: ٣٥].

- وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦].

وغيرها كثير؛ وفي هذا تنبيهٌ وتعليمٌ للعبد أن يختار في دعائه ما يناسب مقتضى الحال، فمن معاني الرب القيام بما يصلح المربوب.

قال ابن فارس(٢): «الرب: المالك، والخالق، والصاحب،

---

(١) الكشاف ٣/ ٦٠.

(٢) هو: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين: أحد أئمة اللغة والأدب، من أشهر مصنفاته: «معجم مقاييس اللغة»، و«الصاحبي في فقه اللغة»، و«جامع التأويل في تفسير القرآن»، و«ذم الخطأ في الشعر»، مات سنة (٣٩٥هـ)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٠٣، شذرات الذهب ٣/ ١٣٢.

والمصلح»[١].

وعرَّفه الفيروزآبادي[٢] بقوله: «رب كل شيء: مالكه ومستحقه أو صاحبه»[٣].

وقد جاءت كلمة [الربّ] في القرآن الكريم ومعاجم اللغة في موارد متعددة، ولكنها جميعاً ترجع إلى معنى واحد أصيل، وهو: من بيده أمر التدبير والتصرف[٤].

قال ابن تيمية: «والرَّبُّ: هو المربي الخالق الرازق الناصر الهادي.

وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة؛ ولهذا يقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ [نوح: ٢٨]، ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف]، ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦]، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧]، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فعامة المسألة والاستعانة المشروعة باسم الرب»[٥].

ولكن في موضع واحد يأتي لفظ الجلالة [اللَّهُ] كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال].

فلم يأت هنا بلفظ الرب؛ وهذا مما يزيد في عظمة هذا القرآن؛ لأمور:

١ ـ أن النداء من قوم مشركين، لم يتأدبوا بآداب الإسلام.

---

(١) معجم مقاييس اللغة ٢/ ٣٨١.

(٢) هو: محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، أبو طاهر، مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي: كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير، من أشهر مصنفاته: «القاموس المحيط»، و«بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز»، و«المغانم المطابة في معالم طابة»، مات سنة (٨١٧هـ)، له ترجمة في: البدر الطالع ٢/ ٢٨٠، طبقات الأدنه وي ٣١٢.

(٣) القاموس المحيط ١١١.

(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة ٢/ ٣٨٢.

(٥) مجموع الفتاوى ١٤/ ١٣.

٢ ـ ولا مناسبة بين لفظ الرب وبين ما دَعَوا به من العذاب.

فجاء النداء باللفظ العام وهو الدعاء بلفظ الألوهية، فللَّه الحكمة العالية البالغة[١].

والأمثلة على هذه العادة كثيرة ومطردة، وكل لفظ في القرآن يصلح أن يكون مثالاً لهذه العادة، ومعاني ألفاظ القرآن متناسقة مع السياق الذي وردت فيه، وتلتقي مجتمعة على تقرير المعنى العام لألفاظ القرآن، فالسياق الدقيق هو الذي يُقَدِّر اللفظ المناسب[٢].

المطلب الثاني

اختيار الألفاظ الجامعة

تميّز القرآن بعادة التعبير عن معانٍ كبيرةٍ في ألفاظٍ جامعة لا يستطيع البشر التعبير بمثلِها لتحقيق المعنى المراد نفسه.

فاختار القرآنُ الألفاظَ السهلةَ الجامعةَ بين الدقة في تحديد المراد، والشمول في الدلالة على المعاني.

وهذا مما اختص به كتاب الله تعالى، فكل من حافظ على اختصار اللفظ لم يستطع التعبير عن مراده دون حيف في المعنى، ومن حافظ على شمول المعنى وتحليله ـ وأنَّى لأحد أن يأتي بمثل معاني القرآن في كمالها ـ فلا بد له من كثرة الألفاظ ليُكمِل مراده فيقع في الحشو والزيادة والإملال مما يفرِّق المعنى ويُنسِي أوله آخره.

فهذا كتاب الله قد جمع الأمرين، فأوصَل المعاني الكبيرة بألفاظ قليلة.

---

(١) ينظر: الموافقات ٢/ ١٦٤، فلفظ الألوهية صالح لكل دعاء، ومناسب لكل معنى.

(٢) وللمزيد من التأمل في دقة استعمال الألفاظ في القرآن: فليُبحَث في القرآن لفظ: (ولد، وغلام)، ولفظ: (زوج، وامرأة)، ولفظ: (سلك، وجعل)، ولفظ: (ينظروا، ويروا)، ولفظ: (قومه، وملائه)، وغيرها.

وألفاظُ القرآن كلُّها دقيقة محكمة، وأسلوبه مطابق لمقتضى الحال في خطابه للعلماء والعامة.

فالقرآن وحده هو الذي يراه البلغاءُ أكملَ تعبير وألطفَ أسلوب، ويراه العامةُ أحسنَ كلام وأيسرَه فهماً وإدراكاً، فهو خطابٌ للخاصة والعامة على السواء، كما قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر].

قال السمرقندي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وهو من جوامع الكلم؛ لأنه قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ يعني: صدقوا، ولم يقل بأي شيء صدقوا، معناه: الذين صدقوا بوحدانية الله تعالى، وصدقوا بمحمد ﷺ، وبالقرآن، وصدقوا بجميع الرسل، وبالبعث، والحساب، والجنة والنار»[(١)].

وقال ابن القيم: «أكثر ـ عمومات القرآن ـ محفوظة باقية على عمومها، فعليك بحفظ العموم فإنه يخلصك من أقوال كثيرة باطلة... ولهذا قال شمس الأئمة السرخسي: إنكار العموم بدعة حدثت في الإسلام بعد القرون الثلاثة»[(٢)].

وقال الزركشي عن القرآن: «أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجل صورة تشتمل على أدقِّ دقيق؛ لتفهمَ العامةُ من جَليلها ما يُقنِعهم ويُلزِمهم الحجة، وتفهمَ الخواصُّ من أثنائها ما يوفِّى على ما أدركه فهم الخطباء»[(٣)].

وقال الفيروزآبادي: «ومن جوامع آيات القرآن قوله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف]، فإنها جامعة لجميع مكارم الأخلاق، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، مستجمعة لجميع أسباب السِّياسة والإيالة[(٤)]، وقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾

(١) تفسير السمرقندي ١/ ٣٨٨.
(٢) الصواعق المرسلة ٤/ ٦٨٤.
(٣) البرهان ٢/ ٢٤ بتصرف.
(٤) الإيالة: من آل مالَه يَؤوله إيالة إذا أَصلحه وساسه. ينظر: معجم مقاييس اللغة، مادة: =

[النَّازعات]، محتوية على حاجات الحيوانات كافَّة، وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، إلى آخر الثلاث الآيات؛ جامعة لجميع الأوامر والنَّواهي، ومصالح الدُّنيا والآخرة، وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا . . .﴾ [القصص: ٧]، يشتمل على أَمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين»[(١)].

ومن الأمثلة على ذلك:

قول النبي ﷺ لما سئل عن الحُمُر: «**ما أنزل الله عليَّ فيها شيئاً إلا هذه الآية الجامعة الفاذَّة**: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزَّلزلة]»[(٢)].

ومن الأمثلة كذلك:

قول ابن مسعود رضي الله عنه: «إن أجمع آية في القرآن لخير أو لشر، آية في سورة النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ الآية [النحل: ٩٠]»[(٣)].

وعند التأمل في أوامر القرآن ونواهيه نجدها بأسلوب واسع الدلالة مع

= (أول) ١/ ١٦٠، الصحاح ٥/ ٣١٤، لسان العرب ١١/ ٣٢.

(١) بصائر ذوي التمييز ١/ ٧١، وينظر: المحرر الوجيز ٢/ ٥٦٣، البحر المحيط ٤/ ٤٤٤، نظم الدرر ٨/ ٤٧٥.

(٢) أخرجه البخاري ٣/ ١٤٨ (٢٣٧١)، كتاب الوحي، باب شرب الناس والدواب من الأنهار، ومسلم ٢/ ٦٨٠ (٩٨٧)، كتاب الزكاة، باب إثم مانع الزكاة، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، حيث سئل ﷺ عن الخيل فقال: «**الخيل ثلاثة فهي لرجل أجر ولرجل ستر ولرجل وزر؛ فأما التي هي له أجر فالرجل يتخذها في سبيل الله، ويعدها له فلا تغيب شيئاً في بطونها إلا كتب الله له أجراً، ولو رعاها في مرج ما أكلت من شيء إلا كتب الله له بها أجراً، ولو سقاها من نهر كان له بكل قطرة تغيبها في بطونها أجر ـ حتى ذكر الأجر في أبوالها وأوراثها ـ ولو استنت شرفاً أو شرفين كتب له بكل خطوة تخطوها أجر في عسرها ويسرها، وأما الذي هي له ستر فالرجل يتخذها تكرماً وتجملاً، ولا ينسى حق ظهورها وبطونها في عسرها ويسرها، وأما الذي عليه وزر فالذي يتخذها أشراً وبطراً وبذخاً ورياء الناس فذاك الذي هي عليه وزر، وسئل عن الحمر...**» الحديث.

(٣) أخرجه الطبري ١٧/ ٢٨٠.

قلة الألفاظ جامع بين الترغيب والترهيب، والمعاني الكثيرة التي يفهمها الجميع، فلا تفصيلٌ ممل، ولا استعمال عبارات توهم السامع غير المراد.

ومن ذلك على سبيل المثال: ألفاظ الأوامر في القرآن.

فغالباً ما تأتي أوامر القرآن جامعةً لمعان كثيرة، ومن أمثلة ذلك:

ـ جاء الأمر بعبادة الله في آيات كثيرة، وهذا الأمر شامل لجميع أنواع العبادة بلا استثناء ابتداء بالواجبات وانتهاء بالمستحبات، بل إن أول أمر في القرآن أمرٌ بعبادة الله في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة].

فالعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة[1]، وكل داعٍ إلى الله تعالى فقدوته الأنبياء الذين دعوا قومهم إلى عبادة الله، لكونها دعوة جامعة لكل خير، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩﴾ [الأعراف]، وقال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾ [الأعراف]، وقال الله تعالى عن المسيح: ﴿مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١١٧﴾ [المائدة].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أهمية اختيار اللفظ الجامع عند الأمر بطاعة الله، أو التحذير من معصيته، وفي هذا تربية للمسلم على الطريقة المثلى للدعوة إلى الخير.

ـ وكذلك جاء الأمر بتقوى الله تعالى في كتاب الله أكثر من ثمانين مرة.

وهو أمر جامع للقرب من كل خير والبعد عن كل شر.

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى ١٠/١٤٩.

وهو وصية الله للأولين والآخرين؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾﴾ [النساء: ١٣١].

وهي الواقية للعبد من عذاب الله.

ولذا خاطب الله تعالى بها المؤمنين؛ فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾ [البقرة].

وخوطب بها النبي ﷺ فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب].

ومعنى قوله: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ اثبت على تقوى الله ودم عليها؛ لأنه كان متقياً[١].

وتَنَوُّعُ المأمورين بالتقوى دليل على أنها لفظ جامع يدعى إليه جميع خلق الله، وينتفع بالتقوى كل من تحلى بها على اختلاف مشاربهم.

وخُوطِب بها عامة الناس؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحج].

قال القاسمي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ [الحج]، يأمر تعالى عباده بِتَقْوَاه التي هي من جوامع الكلم، في فعل المأمورات واجتناب المنهيات»[٢].

ومن الأمثلة كذلك: ألفاظ النهي في القرآن.

فغالباً ما تأتي ألفاظ النهي جامعةً لمعان عامة.

ـ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال].

فالنهي عن الخيانة نهيٌ شاملٌ لكلِّ خيانةٍ في ما شرعه الله تعالى ورسوله.

---

(١) ينظر: معاني القرآن للنحاس ٥/ ٣١٧، الهداية إلى بلوغ النهاية ٩/ ٥٧٨٠.
(٢) تفسير القاسمي ٧/ ٢٣٠.

فهو لفظ جامعٌ لمعانٍ كثيرة كما ذكر المفسرون[١]، ولا يصح استثناء ما يشمله من معان إلا بدليل؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ﴾ قال: «بترك فرائضه، ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ بترك سُنَّته وارتكاب معصيته»[٢].

وقال الطبري: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله نهى المؤمنين عن خيانته وخيانة رسوله، وخيانة أمانته، وجائز أن تكون نزلت في أبي لبابة، وجائز أن تكون نزلت في غيره، ولا خبر عندنا بأيِّ ذلك كان يجب التسليم له بصحته»[٣].

ـ وكذلك جاء النهي في قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠﴾ [الأنعام].

هذا النهي عام لكل إثم، وتخصيصه بشيء معين يحتاج إلى دليل.

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما بين أنه فصل المحرمات أتبعه بما يوجب تركها بالكلية بقوله ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾، والمراد: من الإثم ما يوجب الإثم، وذكروا في ظاهر الإثم وباطنه وجهين:

الأول: أن ظاهر الإثم: الإعلان بالزنا، وباطنه: الاستسرار به.

الثاني: أن هذا النهي عام في جميع المحرمات، وهو الأصح؛ لأن تخصيص اللفظ العام بصورة معينة من غير دليل غير جائز»[٤].

واشتمال القرآن على الألفاظ الجوامع أعظم دليل على أنه تنزيل من حكيم حميد، وعلى صدق من أعطي جوامع الكلم.

فقد جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بعثت بجوامع الكلم...**»[٥]، وفي رواية: «**فُضِّلْتُ على**

---

(١) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ٤/ ٢٧٩٥، تفسير العز بن عبد السلام ١/ ٥٣٢.
(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٥٨، وينظر: الدر المنثور ٤/ ٤٩.
(٣) تفسير الطبري ١٣/ ٤٨٣.
(٤) تفسير الرازي ١٣/ ١٣٧.
(٥) أخرجه البخاري ٩/ ١١٣ (٧٢٧٣)، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب قول النبي ﷺ بعثت بجوامع الكلم، ومسلم ١/ ٣٧١ (٥٢٣)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

الأنبياء بستٍّ: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب،...» الحديث[١].

المراد بجوامع الكلم: الألفاظ القليلة الجامعة لمعان كثيرة.

قال ابن الأثير[٢]: «أي: أنه كان كثير المعاني قليل الألفاظ»[٣].

وقال ابن حجر[٤]: «وجزم غير الزهري بأن المراد بجوامع الكلم: القرآن، بقرينة قوله: «**بعثت**»، والقرآن هو الغاية في إيجاز اللفظ واتساع المعاني»[٥].

قال ابن تيمية: «ولهذا جاء كتاب الله جامعاً، كما قال ﷺ: «**أعطيت جوامع الكلم**»»[٦].

وقد جزم ابن حجر أن المراد بجوامع الكلم: القرآن، وأن الخلاف في دخول السُّنَّة.

حيث قال: «قيل يؤخذ من إيراد البخاري هذا الحديث[٧] عقب الذي قبله[٨] أن الراجح عنده، أن المراد بجوامع الكلم: القرآن، وليس ذلك بلازم، فإن دخول القرآن في قوله: «**بعثت بجوامع الكلم**» لا شك فيه، وإنما النزاع،

---

(١) أخرجه مسلم ١/ ٣٧١ (٥٢٣)، كتاب المساجد ومواضع الصلاة.

(٢) هو: المبارك بن محمد الشيباني الجزري أبو السعادات الشافعي، المعروف بابن الأثير، من مصنفاته: «الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف»، «النهاية في غريب الحديث والأثر»، مات سنة (٦٠٦هـ)، له ترجمة في: طبقات الشافعية ٥/ ١٥٣، شذرات الذهب ٥/ ٢٢.

(٣) النهاية في غريب الحديث ١/ ١٩٥، وينظر: غريب الحديث لابن الجوزي ١/ ١٧١.

(٤) هو: شهاب الدين أحمد بن علي الكناني أبو الفضل العسقلاني ثم المصري الشافعي، شارح صحيح البخاري، وله من المصنفات: «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، و«الدرر الكامنة»، و«الإصابة في تمييز أسماء الصحابة»، وغيرها، مات سنة (٨٥٢هـ)، له ترجمة في: طبقات الحفاظ ٥٥٢، شذرات الذهب ٧/ ٢٧٠.

(٥) فتح الباري ١٣/ ٢٤٧.

(٦) مجموع الفتاوى ٤/ ٤٥٧.

(٧) يريد حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إلي..**» أخرجه البخاري ٩/ ١١٣، (٧٢٧٤).

(٨) أي: حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**بُعِثت بجوامع الكلم..**» أخرجه البخاري ٩/ ١١٣ (٧٢٧٣).

هل يدخل غيره من كلامه من غير القرآن؟»[١].

وقال ابن قتيبة: «قول رسول الله ﷺ: «**أوتيت جوامع الكلم**» فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله سبحانه: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف]، كيف جمع له بهذا الكلام كل خلق عظيم»[٢].

والذي يظهر ـ والله أعلم ـ أن الروايات الأُخرى تُفسِّر المراد، وأن النبي ﷺ أوتي الكتاب والسُّنَّة، فكلاهما متضمِّن لجوامع الكلم.

قال النووي[٣]: ««**بعثت بجوامع الكلم**»، قال الهروي: يعني به: القرآن، جمع الله تعالى في الألفاظ اليسيرة منه المعاني الكثيرة، وكلامه ﷺ كان بالجوامع قليل اللفظ كثير المعاني»[٤].

وقال ابن رجب[٥]: «وجوامع الكلم التي خُصَّ بها النبي ﷺ نوعان:

أحدهما: ما هو في القرآن؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠]، قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الله جمع لكم في هذه الآية الخير كله والشر كله: فوالله ما ترك العدل والإحسان شيئاً من طاعة الله وَعَزَّ وَجَلَّ إلّا جمعه، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلّا جمعه.

والثاني: ما هو في كلامه ﷺ وهو منتشر موجود في السنن المأثورة

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٢٤٨.
(٢) تأويل مشكل القرآن ١١.
(٣) هو: يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحوراني النووي، الشافعي، أبو زكريا، محيي الدين، مولده ووفاته في نوا من قرى حوران، بسورية، فقيه، ومحدِّث، ولغوي، من أهم مصنفاته: «المجموع في شرح المهذّب»، و«شرح صحيح مسلم»، و«رياض الصالحين»، مات سنة (٦٧٦هـ)، له ترجمة في طبقات الشافعية ٥/ ١٦٥، شذرات الذهب ٥/ ٣٥٤.
(٤) شرح النووي على مسلم ٥/ ٥.
(٥) هو: زين الدين عبد الرحمٰن بن أحمد ابن رجب بن الحسن بن محمد بن مسعود، أبو الفرج، السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي، الحافظ المحدث الفقيه الواعظ، من كتبه: «شرح جامع الترمذي»، و«جامع العلوم والحكم»، و«لطائف المعارف»، «فتح الباري»، «شرح صحيح البخاري» ولم يتمه، و«ذيل طبقات الحنابلة»، مات سنة (٧٩٥هـ)، له ترجمة في: شذرات الذهب ٦/ ٣٣٩، طبقات الأدنه وي ٣٥٣.

عنه ﷺ، وقد جمع العلماء رضي الله عنهم جموعاً من كلماته الجامعة»[١].

وقال القرطبي: «هذا رسول الله ﷺ مع ما أوتي من جوامع الكلم، واختص به من غرائب الحكم، إذا تأملت قوله ﷺ في صفة الجنان، وإن كان في نهاية الإحسان، وجدته منحطاً عن رتبة القرآن، وذلك في قوله عليه السلام: «**فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»[٢] فأين ذلك من قوله عز وجل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزُّخرف: ٧١]»[٣].

والخلاصة: أنه لا تعارض بين القولين: فعادة القرآن اختيار الألفاظ الجامعة، وإذا كان النبي ﷺ أوتي جوامع الكلم في حديثه؛ فكون جوامع الكلم في القرآن من باب أولى وآكد، فالحاصل والمراد هنا أن القرآن اشتمل على جوامع الكلم وتميز بها، والأمثلة كثيرة لا تخفى.

وقد بوَّب السَّعدي[٤] في «القواعد الحسان»: «القاعدة الواحدة السبعون: في اشتمال كثير من ألفاظ القرآن على جوامع المعاني».

وذكر أكثر من خمسين مثالاً من القرآن، وقال بعدها: «فهذه الآيات الكريمات وما أشبهها، كل كلمة منها قاعدة، وأصل كلي، يحتوي على معان كثيرة»[٥].

وفي هذه العادة من الفوائد:

١ ـ أن جوامع الكلم تتناسب مع تفاوت الأفهام البشرية، وتنوع إدراكاتها، فيفهمها العامة والعلماء.

---

(١) جامع العلوم والحكم ٨.

(٢) أخرجه البخاري ٤/ ١٤٣ (٣٢٤٤)، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، ومسلم ٤/ ٢١٧٤ (٢٨٢٤)، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٣) تفسير القرطبي ١/ ٧٧.

(٤) هو: عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله آل سَعْدي أبو عبد الله التميمي النجدي الحنبلي، من أهم مؤلفاته: «تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان»، «منهج السالكين» و«توضيح الفقه في الدين»، مات سنة (١٣٧٦هـ)، له ترجمة في: رسالة بعنوان: حياة الشيخ عبد الرحمٰن السعدي في سطور، لأحمد بن عبد الله القرعاوي.

(٥) القواعد الحسان المتعلقة بتفسير القرآن ١٤٠ وما بعدها.

٢ ـ أن جوامع الكلم هي الأسلوب الأمثل لمعالجة هفوات الناس، ومراعاة حال المدعوين، كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، فالحكمة متضمنة للكلام المناسب في الوقت المناسب حسب الحال المناسب، قال الخليل[١]: «الحكمة: مرجعها إلى العدل والعلم والحِلم»[٢].

٣ ـ وتتأكد الحكمة في الدعوة إلى الله؛ لأن الدعوة لمن قصَّر في طاعة الله، وعصى مراراً قد أَلِف المعصية وتعوَّد عليها، فالشدة والعنف تُنَفِّره، فلا بُدَّ من الرفق به ومراعاة حاله؛ لِيَخرُج عما أَلِف، ويسلك الطريق الصحيح، فمسلك اللِّين والرِّفق يؤثر أكثرَ على المدعوِّ مهما كان مكانُه وحالُه؛ وهذا هو المطلوب من المسلمين كلٌّ بحسبه.

قال السعدي: «قد أمر الله تعالى بالدعاء إلى سبيله بالتي هي أحسن؛ أي: بأقرب طريق موصل للمقصود، محصل للمطلوب، ولا شك أن الطرق التي سلكها الله في خطاب عباده المؤمنين بالأحكام الشرعية هي أحسنها وأقربها»[٣].

٤ ـ أن في الألفاظ الجامعة إيجازاً في اللفظ، وإعجازاً في المعنى.

٥ ـ في اللفظ الجامع جمْعٌ بين معان متفاوتة، وكلها صحيحة مقبولة، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران].

قال القرطبي: «قال أنس بن مالك ومكحول في تفسير: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، معناه: إلى تكبيرة الإحرام، وقال علي بن أبي طالب: إلى أداء الفرائض، وقال عثمان بن عفان: إلى

---

(١) هو: الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، أبو عبد الرحمٰن، من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض، وهو أستاذ سيبويه النحوي، ولد ومات في البصرة، من مصنفاته: كتاب «العين في اللغة»، و«معاني الحروف»، وكتاب «العروض»، مات سنة (١٧٠هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٢/ ٢٤٤، سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٣١.

(٢) كتاب العين ٢٠٤.

(٣) القواعد الحسان ١٨.

الإخلاص، وقال الكلبي: إلى التوبة من الربا، وقيل: إلى الثبات في القتال، وقيل غير هذا، والآية عامة في الجميع»[١].

فتصح جميع المعاني تفسيراً للآية؛ لأنه لا تعارض بينها، ولذا يحمل ما ورد عن السلف على أنه تفسير بالمثال، والله أعلم.

٦ ـ في الألفاظ الجامعة بيان عموم القرآن وشموله، وأنه صالح ومُصلِح لكل زمان ومكان، قال جل وعلا: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨]، والله تعالى أعلم وأحكم.

المطلب الثالث

مراعاة المناسبة لألفاظ الفواصل

القرآن كما هو معجز في مضمونه ومعانيه، فهو معجز في أسلوبه وبنائه، ومن أساليب القرآن المعجزة، مراعاة المناسبة لألفاظ فواصل الآيات، والتالي لكتاب الله جل وعلا يدرك أن هذا من عادات القرآن، مما يدل دلالة واضحة أن الاهتمام بالصوت أمر مطلوب، وأدعى لانتباه السامع وإصغائه لإدراك وفهم المضمون، مع الدلالة الواسعة للمعنى، وهذا ما يوافق الذوق العربي الذي نزل القرآن معجزة لأهله بفصاحتهم وبلاغتهم.

والفاصلة: كلمة آخر الآية[٢].

قال ابن الجوزي[٣]: «ويسمون أواخر الآي الفواصل»[٤].

---

(١) تفسير القرطبي ٤/ ٢٠٣.

(٢) ينظر: معاني ألفاظ القرآن ٧٢٤، لسان العرب ١١/ ٥٢٤، البرهان ١/ ٥٣، الإتقان ٢/ ٢٠٩.

(٣) هو: جمال الدين عبد الرحمٰن بن علي بن محمد ابن الجوزي أبو الفرج القرشي البغدادي الحنبلي، علامة عصره في التاريخ والحديث، صاحب التصانيف في أنواع العلوم منها: «زاد المسير»، و«الناسخ والمنسوخ»، و«تلبيس إبليس»، و«الضعفاء والمتروكين»، مات سنة (٥٩٧هـ)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣٦٥، طبقات السيوطي ٥٠.

(٤) زاد المسير ١/ ٣٦٤.

ولابن الصائغ الحنفي[١] مؤلف حول الفاصلة، لخَّصه السيوطي في الإتقان حيث يقول: «تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة؛ فعثرت منها على نيف عن الأربعين حكماً..»[٢].

ومن أبرز عادات القرآن:

التقديم والتأخير لرعاية ألفاظ الفواصل، ومن الأمثلة:

❐ أولاً: تقديم ما هو متأخر في الزمان:

- كقوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النَّجم].
- وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النَّازعات].
- وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الليل].

ففي تقديم الآخرة على الأولى مراعاة للفواصل مع جمال في التعبير، وإلا فقد جاءت الأولى مقدمة على الآخرة كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [القصص].

❐ ثانياً: تقديم الفاضل على الأفضل:

- كما في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه].

ومن أبرز أسرار تقديم هارون على موسى هنا مراعاة الفاصلة[٣] إذ أواخرها الألف المقصورة مثل: «ألقى، تسعى، موسى، الأعلى، أتى، أبقى، الدنيا، يحيى، العلى، تزكى»[٤].

---

(١) هو: محمد بن عبد الرحمٰن بن علي، شمس الدين الحنفي الزمردي، ابن الصائغ، أديب مصري، من كتبه: «التذكرة في النحو»، و«المباني في المعاني»، و«المنهج القويم في فوائد تتعلق بالقرآن العظيم»، مات سنة (٧٧٦هـ)، له ترجمة في: الدرر الكامنة ٣/ ٤٩٩، شذرات الذهب ٦/ ٢٤٨.

(٢) ينظر: الإتقان ٢/ ٢١٤.

(٣) ينظر: البرهان ٣/ ٢٧٤، الفاصلة للحسناوي ١١٨.

(٤) ينظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ ٥٦٤.

وخلاصة البحث فيها:

أن موسى وهارون اقترنا في عشر آيات من القرآن وقدم موسى في تسع منها تقديماً لما حقه التقديم، أربعة مواضع منها في فواصل الآيات كلها روعيت فيها الفواصل بالتماثل أو التقارب.

ـ كما قال تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف]، سياق هذه الآيات، قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف].

ـ وقوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء]، سياق هذه الآيات: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشعراء].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [الصَّافات]، سياق هذه الآيات: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾ [الصَّافات].

ـ وقوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الصَّافات]، سياق هذه الآيات: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [الصَّافات].

وفي ثلاثة مواضع كانت القصة واحدة، وهي قصة موسى مع سحرة فرعون، فقدم موسى في موضعين هما:

ـ قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأعراف]، وقوله: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء].

تقديماً لما حقه التقديم.

وفي الموضع الثالث قدم هارون، مراعاة للفاصلة كما في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه]، فروعيت الفواصل مع تمام المعنى، وفي هذا أيضاً تمام الفصاحة والبلاغة.

ولا يلزم من تقديم هارون تفضيله على موسى، فتقديمه لمراعاة الفاصلة من ناحية، وكون الواو إنما تفيد الجمع دون الترتيب من ناحية أخرى، وهذا جزء من التعليل.

ولا يعني هذا أن التقديم والتأخير في أواخر الآي لمراعاة الفاصلة فحَسْب، فالمتأمل لسورة طه يجد أن الفاصلة تغيرت في مواضع أُخرى حسب اختلاف المعنى، والمثال من السورة نفسها في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾﴾ [طه].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾﴾ [طه].

وفي تقديم هارون معان أُخرى غير الفاصلة، ومنها ما يأتي:

١ ـ أن هارون أكبر من موسى عليه السلام، وأفصح منه، وتقديمه بسببها جائز.

٢ ـ أن فرعون ادَّعى الربوبية: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النَّازعات]، وادَّعى الألوهية فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، ولو اقتصروا على القول: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأعراف: ١٢١]، ادَّعى فرعون أنه هو، ولم يقتصروا على ذكر موسى لكون فرعون أيضاً يدعي ربوبيته لموسى، قال تعالى على لسان فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء]، فذكروا هارون وقدموه دفعاً لهذه الشبهة.

٣ ـ وفي تقديم هارون تأكيدُ إيمانهم، حيث إن المتوقَّع أن يُقدِّموا من جاء بالمعجزة، فإذا آمنوا برب هارون فإيمانهم برب موسى من باب أولى.

قال البيضاوي: «﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه: ٧٠] قدم هارون لكبر سنه، أو لروي الآية، أو لأن فرعون ربَّى موسى في صغره، فلو اقتصر

على موسى، أو قدم ذكره لربما تُوُهِّم أن المراد فرعون، وذِكر هارون على الاستتباع»[١].

٤ ـ أن كل هذه المقولات اجتمعت على لسان السحرة في تلك الحال، فقال بعضهم: رب العالمين، وقال بعضهم: موسى وهارون، وقال بعضهم: هارون وموسى، اختلفت الأساليب في قولها، كما هو شاهد الواقع في الأحداث الكبار، مع الجمع الكثير، وهذا من إعجاز القرآن، في حكاية الأقوال.

٥ ـ أن القرآن يُبَيِّن لنا الحالة التي كان عليها السحرة لما ظهرت معجزة موسى، فسجدوا، ومن شدة الموقف جاء التقديم والتأخير غير مقصود لهم، كحال العبد الذي فرح براحلته بعد الإياس منها فأخطأ من شدة الفرح[٢].

قال الباقلاني[٣]: «وأقوى ما يستدلون ـ القائلون بجواز السجع في القرآن[٤] ـ به عليه اتفاق الكل على أن موسى أفضل من هارون عليه السلام،

---

(١) تفسير البيضاوي ٤/ ٦١.

(٢) إشارة إلى حديث الفرح بالتوبة، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه؛ فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللَّهُمَّ أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح**» أخرجه مسلم ٤/ ٢١٠٤، (٢٧٤٧)، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها.

(٣) هو: محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر الباقلاني، البصري، المتكلم المشهور، قاض، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة، من كتبه: «إعجاز القرآن»، و«الإنصاف»، و«مناقب الائمة»، و«الملل والنحل»، مات سنة (٤٠٣هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٤/ ٢٦٩، الأنساب ٢/ ٥٢.

(٤) بعد اطلاعي على الخلاف تبين لي أن سببه عدم اتفاقهم على معنى السجع، فكلٌّ نظر إلى جانب منه فحكم ودافع بناء على ما ظهر له، وتعاريف السجع غير متحدة الضوابط، وليست بدقيقة، فمن نظر إلى أن السجع فيه تكلف وإخلال بالمعنى، وتشبه بما لا يليق؛ منع منه مطلقاً، وهذا هو الظاهر من أدلتهم، ومن فصّل ـ وهو الأصح ـ في أن السجع: إما أن يكون متكلفاً، وفيه تغيير للمعنى فهذا مذموم، ولم يرد منه شيء في القرآن، وإما أن يكون السجع بلا تكلف تابعاً للمعنى فهذا محمود، وهو الذي ورد به القرآن، لكن الذين نفوا اسم السجع كانوا أكثر توفيقاً في تنزيه كلام الله =

ولمكان السجع قيل في موضع: هارون وموسى، ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل: موسى وهارون».

وأجاب عنه بقوله: «وأما ما ذكروه من تقديم موسى على هارون عليهما السلام في موضع وتأخيره عنه في موضع لمكان السجع وتساوي مقاطع الكلام فليس بصحيح؛ لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه، وهي أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة وتؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر به الفصاحة، وتتبين به البلاغة..»[(١)].

فلا أَشُكُّ أن هناك معان لهذا التقديم والتأخير حقيقةٌ بأن يُتَأمل فيها، مع القول بمراعاة الفاصلة كما ذكر العلماء[(٢)].

وعليه فالأقرب أن عادةَ القرآن في الفواصل مراعاةُ اللفظ والمعنى جميعاً، ولا تعارض بينهما، بل به يتحقق إعجاز القرآن بجانبيه اللفظي والمعنوي، والله أعلم.

ومن الأمثلة كذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [النَّجم].

ففي هذه الآية تقديم موسى على إبراهيم مراعاة لرؤوس الآي.

قال الزركشي: «قدم ذكر موسى لوجهين، **أحدهما**: أنه في سياق الاحتجاج عليهم بالترك وكانت صحف موسى منتشرة أكثر انتشاراً من صحف إبراهيم، **وثانيهما**: مراعاة رؤوس الآي»[(٣)].

= تعالى عن الوصف المستعمل في غيره من أساليب البشر، ولكي يسلم القرآن من الاشتراك في مسمى يحتمل المدح والذم، فالقول بالفاصلة أبعد عن الخلاف، وأعمُّ وأدقّ، والله أعلم.

(١) إعجاز القرآن ٥٧، ٦١ ـ ٦٢.

(٢) القول بمراعاة الفاصلة هو أقوى توجيه في نظري لهذا التقديم، والمعاني الأخرى اجتهادية ليس هناك ما يمنع منها، والعلم عند الله.

(٣) البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢٣٩.

بينما قدم إبراهيم في غير هذا الموضع.

ـ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب].

ـ وقوله تعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى].

❐ ثالثاً: تقديم الأبلغ:

القاعدة في علم البيان تأخير الأبلغ، يقال: عالم نحرير، وشجاع باسل[(١)].

ولكن قُدِّم الأبلغ في القرآن لفوائد من أشهرها مراعاة الفاصلة في الصوت والمعنى.

ـ كتقديم الرحمٰن على الرحيم في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة: ٣][(٢)].

ـ وتقديم الرؤوف على الرحيم في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة: ١١٧].

ـ وتقديم العفو على الغفور في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾﴾ [الحج].

ـ وتقديم الرسول على النبي في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [مريم][(٣)].

قال الزمخشري: «فإن قلت: فلم قدم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه، والقياس الترقي من الأدنى إلى الأعلى؛ كقولهم: فلان عالم نحرير، وشجاع باسل، وجواد فياض؟.

قلت لما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها

---

(١) ينظر: المثل السائر ٢/ ٣٢، الإيضاح في علوم البلاغة ٣٠٤، مغني اللبيب ٤٤، البرهان ٣/ ٢٧٤.

(٢) ينظر: مغني اللبيب ٤٤٠.

(٣) ينظر: البرهان ٣/ ٢٧٤.

أردفه: ﴿ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾ كالتتمة والرديف ليتناول ما دق منها ولطف»[١].

❐ رابعاً: تقديم المعمول على العامل:

ـ ومن صوره في الفواصل تقديم المفعول على الفاعل؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١﴾ [القمر] كل فواصل السورة رائية؛ فقدم المعمول على العامل ليتحقق تناسب الفواصل مع جمال الصوت وجودة الجرس المؤثر على القلوب.

ـ ومن ذلك تأخير الفاعل في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾ [طه]، قدم الضمير العائد على موسى والمفعول على الفاعل لمراعاة المناسبة بين فواصل الآيات [تسعى، الأعلى، أتى]، مع ما لتقديم الخيفة في الآية من معنى.

ـ قال الزركشي: «وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ [فصّلت: ٣٧]، فقدم إياه على تعبدون لمشاكلة رؤوس الآي»[٢].

ـ ومثلها قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧﴾ [البقرة: ٥٧]، فقدم المفعول لتأكيد اختصاهم بظلم أنفسهم وللجمال الصوتي بتوافق الفواصل بحرف النون حيث الفواصل قبلها: [تنظرون، تشكرون].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝١٦٠﴾ [البقرة: ٥٧]، قدم فيه المفعول للقصر، وقد حصل القصر أولاً بمجرد الجمع بين النفي والإثبات ثم أكد بالتقديم لأن حالهم كحال من يَنْكِي غيره»[٣].

بل إن أبا السعود قصر الحكمة في التقديم والتأخير على رعاية مناسبة الفاصلة حيث قال: «﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٧٠﴾ لما أنهم أضاعوها بإنفاقها لا على ما ينبغي، وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص؛ إذ الكلام في الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول؛ أي: ما ظلمهم الله ولكن

(١) الكشاف ١/ ٥١.
(٢) ينظر: البرهان ٣/ ٢٧٥.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ٥١٢.

ظلموا أنفسهم، وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار»[١].

ومن عادات القرآن في مراعاة المناسبة لألفاظ الفواصل:

إيثار فصل الآية عند ما يناسب البلاغة ولو لم يكتمل معنى الآية القرآنية، والعكس كذلك، فيؤْثَر عدم فصل الآية ولو اكتمل معناها؛ لأن الجرس الصوتي يتلاءم مع عدم الفصل.

وأمثلة هذا كثيرةٌ، خصوصاً في السور المكية التي كانت أولُ ما قرعَ أسماعَ العرب لتأسر حبهم وذوقهم العربي.

ومن ذلك:

ـ قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ [المدَّثر].

لما تأملت في الآيتين ﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ وجدت اتصالهما اتصال العامل بمعموله ولعل من حكم رسم الفاصلة بينهما ـ والله أعلم ـ رعاية مناسبة الألفاظ، وحُسْنِ الترتيب مع استمرار قارئ القرآن في القراءة حتى يتم المعنى، وإذا وقف عند الفاصلة فإنه وقوفُ مرتِّلٍ متَابع.

ـ وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون].

بين الآيتين ارتباط وثيق، بل الوقوف على الأولى دون متابعة يُوهِم غير المعنى المقصود؛ لأن ما بعدها وصِفَ لِمَن يقع عليهم الوَيْل وليس لعامة المصلين، بل على المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون، ولعل من حِكَم الفاصلة رعاية المناسبة للألفاظ مع بقاء حُسن الأداء الذي يقتضيه جمالُ الترتيل، مع استمرار القارئ حتى يتم المعنى كاملاً، وإذا وقف فهي وقفة نَفَس لا وقفة ختام[٢].

ـ وقوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾

(١) تفسير أبي السعود ٢/ ٧٥.

(٢) ينظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله ﷻ ٥٥٩.

مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾ [الشعراء].

نلاحظ رسم الفاصلة بعد ﴿تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾﴾ مع ارتباط ما بعده به ارتباط القَيْد بالمُقَيَّد، ولكن لرعاية المناسبة لألفاظ الفواصل اخْتِير رسم الفاصلة عند لفظ: ﴿تَعْبُدُونَ﴾ وعدم وضعها بعد: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، والله أعلم.

ـ وقوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾ [الصَّافات].

إتيان الفاصلة عند [يَعْبُدُونَ] يقال فيه مثل ما قيل في آية الشعراء السابقة.

ـ وقوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾﴾ [القمر].

في هذا النص مراعاةٌ لنَسَقِ اللفظ واختيار المناسب لفواصل الآيات، حيث نرى إيثار عدم فصل الآية مع اكتمال معناها عند قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، والفصل بينها وبين ما قبلها مع الارتباط من جهة المعنى، ثم بدأ كلامٌ مستأنفٌ في موضوعٍ جديد عن اليوم الآخر وما يحصل فيه من مشاهد، ولكن لأن الجرس الصوتي يتلاءم مع عدم الفصل، فالفواصل رائية وفيها تجانس في حرف النون والراء [نُذُر، نُكُر]، فلعل من حِكم مجيء الفاصلة عند قوله: ﴿ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾، ﴿نُّكُرٍ ﴿٦﴾﴾ ولم تكن عند قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ مراعاة لمناسبة ألفاظ الفواصل.

ففي هذه الآية مثالٌ لفصلِ الألفاظ في المعنى الواحدِ مراعاةً للفاصلة، وربطٌ للألفاظ في معان مختلفة مراعاةً للفاصلة، فجاء اختيار اللفظ المناسب للصوت المناسب مع حصول المعنى المناسب، والله تعالى أعلم.

المبحث الثاني

استعمال بعض الألفاظ لمعنى خاص

وفيه ثلاثة مطالب:

- **المطلب الأول: تخصيص اللفظ في معنى.**
- **المطلب الثاني: استعمال بعض الألفاظ مرة واحدة.**
- **المطلب الثالث: استعمال الألفاظ اللائقة بالقرآن.**

المطلب الأول

تخصيص اللفظ بمعنى

من عجائب هذا الكتاب العظيم أنك تجد ألفاظاً تختَصُّ بمعنى واحدٍ في جميع القرآن مع أن لها معاني أخرى ودلالات مختلفة إلا أن القرآن اختار منها معنًى واحداً؛ فيصح أن يقال عندها: كل ما جاء هذا اللفظ في القرآن فمعناه كذا باطراد.

وهو موضوع جميل، وفيه من الفوائد البيانية واللطائف اللفظية ما جعل العلماء يهتمون بهذه الألفاظ فمنهم من سماها كليات[١]، ومنهم من سماها عادات[٢]، ومنهم من أطلق عليها أفراد القرآن[٣] ولا مشاحَّة في الاصطلاح، ومنهم من أفردها بالتأليف باسم الوجوه والنظائر[٤].

قال ابن عاشور: «وقد اعتنى العلماء بإحصاء كليات تتعلق بالقرآن،

---

(١) كالكفوي في الكليات.
(٢) كابن عاشور في التحرير والتنوير.
(٣) كابن فارس في الأفراد.
(٤) مثل مقاتل، والدامغاني، والسبكي، والسيوطي، وابن نجيم، وينظر: كليات الألفاظ في التفسير ١/ ٩٣.

وجمَعَها ابن فارس وذكرها عنه في الإتقان، وعُني بها أبو البقاء الكفوي في كلياته»[١].

وقال الجاحظ[٢]: «وقد يستخِف الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرُها أحقُّ بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن [الْجُوعِ] إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر؟ والناس لا يذكرون [السَّغب][٣]، ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر [المطر] فلا نجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يُفصِّلون بين ذكر [المطر]، وذكر [الْغَيْثَ]»[٤].

وفي هذه العبارة التي توالى عليها العلماء: (كل ما في القرآن كذا فمعناه كذا) ترجيحٌ للفظ الذي فيه نزاع بما يوافق أغلب استعماله في القرآن، فيحكونها كلية وإن كانت أغلبية عند بعض المفسرين.

فمعرفة هذه العادة مهم جداً؛ لأن استعمال القرآن للفظ في مواضع على

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٣.

(٢) هو: عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي البصري، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، من أئمة الأدب، إليه تنسب الفرقة الجاحظية من المعتزلة، له تصانيف كثيرة منها: الحيوان، والبيان والتبيين، والبخلاء، والمحاسن والأضداد، مات سنة (٢٥٥هـ)، له ترجمة في: وفيات الأعيان ٣/ ٤٧٠، سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٢٧.

(٣) السَّغَب: هو الجوع، وقيل: الجوع مع التعب. ينظر: لسان العرب، مادة: (سغب) ١/ ٤٦٨.

(٤) البيان والتبيين ١/ ٢٦، ويستثنى من هذا الحكم آية النساء وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢] إذ المطر ههنا بمعنى الغيث وهو رحمة لا عذاب، ولو قيل: إن مطر يقال في الخير، وأمْطَر في العذاب كان أدقّ. ينظر: مفردات ألفاظ القرآن ٧٧٠، وهذا قول الأزهري. ينظر: المصباح المنير ٢/ ٥٧٥، وقال ابن حجر: «يقال: مطرت السماء وأمطرت، ويقال: مطرت في الرحمة، وأمطرت في العذاب، وقال ابن عيينة: «ما سمَّى الله مطراً في القرآن إلا عذاباً»؛ يعني: ما أطلق المطر في القرآن إلا على العذاب، وتُعُقب بقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ [النساء: ١٠٢]» فتح الباري ١/ ١٨٩، والله أعلم.

معنى واحد ينفع المفسر والمتأمل في معرفة معاني القرآن.

وهو أيضاً يَفْصل النزاع ـ إن وجد ـ في أحد مواضع اللفظ، فالقاعدة التي اعتمدها أئمة التفسير حَمْلُ اللفظ على مِثْلِه من ألفاظ القرآن في غير موضعِ النزاع أولى من حمله على غيره(١).

وقد اطلَعْتُ على رسالة متميزة بعنوان: [كليات الألفاظ في التفسير] حَوَت الكلمات التي قال عنها المفسرون: كلُّ ما في القرآن بمعنى واحد أو أغلبي(٢).

وقد اعتنى العلماء بهذا الجانب قديماً وحديثاً لما فيه من الاستقراء لكتاب الله والوقوف على عادة من عادات القرآن الأسلوبية.

ومن الأمثلة على هذه العادة:

ـ عدم البيان بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾، والبيان بعد قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾.

جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ في ثلاثة مواضع من القرآن كلُّها لم يُخبَر بتفسيره وهي:

١ ـ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣].

٢ ـ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى: ١٧].

والمعنى: أي شيء أعلمك عن وقت قيام الساعة فذلك إلى الله، والمأمور به هو الاستعداد لها(٣).

٣ ـ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [عبس].

أي: وما يُعلِمك أنه يحصل له زكاةٌ وطهارة في نفسه(٤)، فأنت لا تعلم

---

(١) ينظر: الموافقات ٣/٣٥٨، التبيان في أقسام القرآن ١٣٦.

(٢) هي: رسالة ماجستير قيِّمة في قسم القرآن وعلومه، كلية أصول الدين، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية للشيخ الفاضل/ بريك بن سعيد القرني، طبعت عام ١٤٢٦هـ في مجلدين.

(٣) ينظر: تفسير السمعاني ٤/٣٠٨، تفسير ابن كثير ٦/٤٨٣.

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير ٨/٣١٩.

بحقيقة أمْرِه فهو من أمر الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ولم يأت في الآيات التالية بيان عن عاقبة أمره وما آلَ إليه.

قال ابن القيم: «والمألوف من عادة القرآن في استعمال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ في الأمور الغائبة العظيمة»(١).

وورد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ ثلاث عشرة مرة في القرآن.

قال سفيان بن عيينة(٢): «وما كان: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد أخبره»(٣).

ومثله قال الفراء(٤)، وغيرهما(٥).

وهي كالتالي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ [الحاقَّة]، ثم بيَّن في الآيات بعدها فقال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١٥﴾ [الحاقَّة] فذكر أوصاف الواقعة، وهي والحاقة من أسماء القيامة.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧﴾ [المدَّثر]، ثم بيَّن أوصافها ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨﴾ [المدَّثر] إلخ.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤﴾ [المرسلات]، وبيَّن بعدها بقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨﴾ [المرسلات].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧﴾ [الانفطار].

٥ ـ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨﴾ [الانفطار]، ثم بيَّن بقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨﴾ [المطَّففين]؛ أي: وأيُّ شيء

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ٢٩.

(٢) هو: سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد، محدِّث الحرم المكي، وسكن مكة وتوفي بها، كان حافظاً ثقة، واسع العلم كبير القدر؛ من مصنفاته: «الجامع في الحديث»، و«كتاب في التفسير»، مات سنة (١٩٨هـ)، له ترجمة في: تاريخ بغداد ٩/ ١٧٤، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٤٢.

(٣) تفسير الطبري ٢٣/ ٥٧٠.

(٤) معاني القرآن ٣/ ٢٨٠.

(٥) ينظر: زاد المسير ٩/ ١٣٤، تفسير القرطبي ٢٠/ ٣، نظم الدرر ٨/ ٣٥٨.

أدراك يا أيها النبي ما سِجِّين؟! على التعظيم لأمره، ثم بَيَّنَ فقال: ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٞ ۝٩﴾ [المطَّففين]؛ أي: مكتوبٌ فيه عَمَلُ الكفار[١]، قال قتادة[٢]: مرقوم: «مكتوب رُقِمَ لهم فيه بِشَرٍّ»[٣].

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩﴾ [المطَّففين]؛ أي: وأي شيء أدراك يا أيها النبي ما عليُّون؟! يُعَجِّبُ نبيه ﷺ من عليين، ثم بيَّنه فقال: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠﴾ [المطَّففين]؛ أي: مكتوب بأمان الله للأبرار من العذاب يوم القيامة والفوز بالجنة[٤].

٨ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾ [الطَّارق]، جاء الجواب: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾ [الطَّارق].

٩ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢﴾ [البلد]؛ أي: ما اقتحام العقبة؟! أي: وأي شيء أشعرك يا أيها النبي ما اقتحام العقبة؟! ثم فسَّرها فقال: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣﴾ [البلد]؛ أي: اقتحامها والنجاة منها هو فك رقبة من الرق وأسر العبودية[٥].

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾ [القدر]، جاء البيان بقوله: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ [القدر].

١١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ ۝٣﴾ [القارعة]، جاء البيان بقوله: ﴿يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢٤/ ٢٨٥.

(٢) هو: قتادة بن دِعامة بن قتادة بن عُزيز، أبو الخطاب السدوسي البصري، مفسِّر حافظ فقيه، عالماً بالعربية ومفردات اللغة، وأيام العرب والنسب، مات بواسط في الطاعون سنة (١١٨هـ)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ٥/ ٢٦٩، طبقات الداوودي ٢/ ٤٧.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٢٨٥، وينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ١٢/ ٨١٢٥، تفسير السمرقندي ٣/ ٥٣٥، تفسير القرطبي ٩/ ٨٢.

(٤) ينظر: الكشاف ٤/ ٧٢٣، تفسير الرازي ٣١/ ٨٨، التسهيل ٣/ ٢٩٥، نظم الدرر ٨/ ٣٦٢.

(٥) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية ١٢/ ٨٢٨٠، المحرر الوجيز ٥/ ٤٥٦، الكشاف ٤/ ٧٥٩، التسهيل ٣/ ٣٢٦.

١٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾ [القارعة]، جاء البيان بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القارعة].

١٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥﴾ [الهمزة]، جاء البيان بقوله: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾ [الهمزة].

قال الراغب[١]: «كل موضع في القرآن ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ فقد عُقِّب ببيانه»[٢].

ومن الأمثلة كذلك:

ـ لفظ الترف.

جاء في كلِّ مواضعه في القرآن بمعنى التَّنَعُّم بالحرام.

وقد ورد ذكر التَّرَف في القرآن في ثمانيةِ مواضع كلّها في موضع الذم والتحذير منه.

والترف في اللغة كما قال ابن فارس: «التاء والراء والفاء كلمة واحدة، وهي التُّرْفَة، يقال: رجل مُترفٌ مُنَعَّم، وتَرَّفَهُ أهلُه إذا نعّموه بالطعام الطيب والشيء يُخَصُّ به»[٣].

فإذا نظرت إلى كل موضع في القرآن ذكر فيه الترف وجدته منسوباً إلى أهل الشر، ويأتي دائماً في سياق الذم والوعيد.

والآيات كما يأتي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝١١٦﴾ [هود: ١١٦].

---

(١) هو: الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم الراغب الأصفهاني، المعروف بالراغب، من أشهر مصنفاته: «مفردات ألفاظ القرآن»، و«جامع التفاسير»، «وحل متشابهات القرآن»، و«أفانين البلاغة»، مات سنة (٥٠٣هـ)، له ترجمة في: سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٢٠، طبقات الداوودي ٢/ ٣٢٩، باسم المفضل والصواب أنه الحسين.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن ٣١٣، ٣٩٩، وينظر: الإتقان ١/ ١٩٠، وذكرها قبله المبرد في ما اتفق لفظه واختلف معناه ٤٨، وينظر للاستزادة: كليات الألفاظ في التفسير ٢/ ٥٤٤.

(٣) معجم مقاييس اللغة، مادة: (ترف) ١/ ٣٤٥، وينظر: كتاب العين ١٠٢، لسان العرب ٩/ ١٧.

قال ابن كثير: «أي: استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فَجَأهم العذابُ»(١).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإسراء].

فالمراد: أنهم استعملوا نعمة الله في معصيته والخروج عن طاعته فحق عليهم العذاب(٢).

٣ ـ قوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء].

قال القرطبي: «﴿وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾؛ أي: إلى نِعَمكم التي كانت سبب بَطَرِكم، والمُتْرَف المتنعم، يقال: أُترف على فلان؛ أي: وسع عليه في معاشه»(٣).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [المؤمنون].

أي: أغنياءهم ورؤساءهم، والإشارة إلى قريش(٤).

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [المؤمنون].

قال الطبري: «يقول: ونعَّمناهم في حياتهم الدنيا بما وسَّعنا عليهم من المعاش، وبسطنا لهم من الرزق، حتى بَطِرُوا وعَتَوْا على ربهم وكفروا»(٥).

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ].

قال ابن الجوزي: «مترفوها: هم أغنياؤها ورؤساؤها، في المشار إليهم

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٦١.
(٢) ينظر: تفسير البغوي ٥/ ٨٣.
(٣) تفسير القرطبي ١١/ ٢٧٥.
(٤) ينظر: زاد المسير ٤/ ٤١٧.
(٥) تفسير الطبري ١٩/ ٢٨، ٢٩.

قولان: **أحدهما**: أنهم المُتْرَفون من كل أُمة، **والثاني**: مشركو مكة»[١].

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزُّخرف].

قال القرطبي: «والمترف: المنَعَّم، والمراد هنا الملوك والجبابرة»[٢].

٨ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الواقعة].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن هؤلاء الذين وصف صفتهم من أصحاب الشمال، كانوا قبل أن يصيبهم من عذاب الله ما أصابهم في الدنيا مترفين؛ يعني: منعمين»[٣].

وقال السعدي: «أي: قد ألهتهم دنياهم، وعملوا لها، وتنعموا وتمتعوا بها، فألهاهم الأمل عن إحسان العمل، فهذا هو الترف الذي ذمهم الله عليه»[٤].

وعلى هذا فلفظ الترف اختَصَّ بسياق الذم في كل مواضعه في القرآن؛ لأنه تَنَعُّمٌ شَغَل عن طاعة الله، وقاد إلى الطغيان والتكبر.

ولم يأت موضع يطلق فيه الترف على التنعُّمِ في حدود المباح، فسبحان الحكيم العليم.

ومن الأمثلة على هذه العادة:

ـ كل خسران ذكره الله في القرآن فالمراد به النقصان في الآخرة.

ومادة [خُسْرٍ] كما قال ابن فارس: «الخاء والسين والراء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على النَّقْص، فمن ذلك الخُسْر والخُسْران، ويقال: خَسَرْتُ المِيزانَ وأخْسَرْتُه، إذا نقَصْتَه»[٥].

ولفظ [خَسِرَ] ورد في القرآن أكثر من سبعين مرة باختلاف تصاريفه.

قال الراغب: «كل خسران ذكره الله تعالى في القرآن فهو على المعنى

---

(١) زاد المسير ٥/ ١٦٨.
(٢) تفسير القرطبي ١٦/ ٧٥.
(٣) تفسير الطبري ٢٣/ ١٣١.
(٤) تفسير السعدي ٨٣٤.
(٥) معجم مقاييس اللغة، مادة: (خسر) ٢/ ١٨٢.

الأخير، ـ أي: خسارة الميزان في القيامة ـ دون الخسران المتعلق بالمقتنيات الدنيوية والتجارات البشرية»[١].

ومن خسر الآخرة فقد خسر الدنيا والآخرة[٢].

ومن الآيات التي ورد فيها الخُسْر:

١ ـ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة].

قال البغوي: «الخاسرون: المغبونون»[٣].

وقال السعدي: «﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم؛ لأن خسرانهم عام في كل أحوالهم؛ ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان؛ فمن لا إيمان له لا عمل له؛ وهذا الخسار هو خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفراً؛ وقد يكون معصية؛ وقد يكون تفريطاً في ترك مستحب، [فَهُوَ] المذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر]، فهذا عام لكل مخلوق؛ إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح؛ والتواصي بالحق؛ والتواصي بالصبر؛ وحقيقة فوات الخير؛ الذي كان العبد بصدد تحصيله وهو تحت إمكانه»[٤].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة].

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء: ١١٩].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن ٢٨٢، ويَخْرُجُ من هذا: ما كان حكاية على لسان أحد من الخلق؛ لعدم إدراكهم معنى الخسارة الحقيقية أو لكبرهم وعنادهم، كما قال تعالى على لسان مشركي قوم شعيب: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف]، وقوله تعالى على لسان قوم عاد أو ثمود: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المؤمنون].

(٢) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن ٢٨٢.

(٣) تفسير البغوي ١/ ٧٧.

(٤) تفسير السعدي ٤٧.

قال الطبري: «﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ يقول: فقد هلك هلاكاً، وبخس نفسه حظَّها فأوبقها بخساً مبيناً يبين عن عَطَبه وهلاكه؛ لأن الشيطان لا يملك له نصراً من الله إذا عاقبه على معصيته إياه في خلافه أمرَه، بل يخذُله عند حاجته إليه»[(١)].

٤ ـ وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ﴾؛ أي: فلا هو حَصَل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم، فهو فيها في غاية الشقاء والإهانة؛ ولهذا قال: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: هذه هي الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة»[(٢)].

٥ ـ وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزُّمر].

قال الطبري: «وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهم: إن الهالكين الذين غَبَنوا أنفسهم، وهلكت بعذاب الله أهلوهم مع أنفسهم، فلم يكن لهم إذ دخلوا النار فيها أهل، وقد كان لهم في الدنيا أهلون، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل»[(٣)].

فظهر من هذه الآيات أن كل خسران ذكَرَه الله في القرآن وحذَّر منه وحكى حال أهله فهو خسارة الآخرة، ولو كان في الدنيا فلِتَرتُّب العذاب عليه في الآخرة، والله تعالى أعلم.

---

(١) تفسير الطبري ٩/ ٢٢٤.
(٢) تفسير ابن كثير ٥/ ٤٠١.
(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٢٧١.

المطلب الثاني

استعمال بعض الألفاظ مرة واحدة فقط

من عادات القرآن التي تحتاج إلى تأمل وتدبر استعمال اللفظ لمرة واحدة في القرآن كله فلا إعادة للكلمة، ولو كانت كلمة دارجة في اللسان العربي.

وبعد استقراء المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم أحصيت عدداً من الكلمات التي لم تَرِد في القرآن كلِّه إلا مرة واحدة؛ بل ولا من جَذْرِها اللغوي إلا هي.

وهي كلمات تستحق أن تُفرد في معجم مستقل، لدراسة معنى اللفظ لغوياً، ومعرفة معناه حسب السياق الوارد فيه، وفيها أسرارٌ ومعانٍ لمن تأمل فيها.

وأذكر بعض هذه الألفاظ على سبيل المثال:

المثال الأول:

ـ كلمة [**يَبْحَثُ**] لم ترد إلا في قول الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [المائدة].

وعند التأمل في لفظ [بحث] يتبين الآتي:

أ ـ لم تُذكَر مادة [بَحَثَ] في القرآن إلا مرة واحدة.

ب ـ البحث لغة: قال ابن فارس: «الباء والحاء والثاء أصلٌ واحد، يدلُّ على إثارة الشيء»(١).

وقال الراغب: «البحث: الكشف والطلب»(٢).

وقال العسكري: «الفرق بين البحث والطلب: أن البحث هو طلب الشيء مما يخالطه فأصله أن يبحث التراب عن شيء يطلبه فالطلب يكون

(١) معجم مقاييس اللغة ١/ ٢٠٤.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن ١٠٨.

لذلك ولغيره»[١].

وفسَّر الطبري البحث في الآية: بالحفر حيث قال: «﴿يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يقول: يحفر في الأرض، فيثير ترابها»[٢].

وقد ورد في القرآن لفظ [الحُفْرة والحافرة]، وعُدِل هنا عنها إلى البحث.

ج ـ تكرر في آخر الآية نفسها لفظ [يواري، فأواري]، وهو المراد من بحث الغراب، ولم يُكتف به عن لفظ البحث مع دلالته على المراد.

د ـ اختيار لفظ [المواراة] دون الدفن الذي لم يرد في القرآن، مع قربهما في المعنى.

قال ابن فارس: «دفن: الدال والفاء والنون أصلٌ واحد يدلُّ على استخفاءٍ وغموض؛ يقال: دُفنَ الميّتُ»[٣].

وقال ابن منظور: «الدَّفْن السَّتْر والمُواراة»[٤].

وهذا من إعجاز القرآن حيث كان في استعمال اللفظ (يبحث) دقيقاً؛ لأن الحفر أعمق من البحث.

قال ابن فارس: «حفر: الحاء والفاء والراء أصلان: أحدهُما: حَفْر الشّيء، وهو قلعه سُفْلاً؛ والآخَر: أوَّل الأمر»[٥].

وأكد ذلك باستعمال [يُوَارِي] بعدها؛ فالدفن أكثر من المواراة، وهذا هو حال الغراب يبحث ويواري دون الحفر والدفن.

قال القرطبي: «وقيل: إن الغراب بحث الأرض على طُعْمِه ليخفيه إلى وقت الحاجة إليه؛ لأنه من عادة الغراب فعل ذلك؛ فتنبه قابيل بذلك على مواراة أخيه»[٦].

---

(١) الفروق في اللغة ٥٢٧، وينظر: فقه اللغة ٢١٠.
(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٢٢٩.
(٣) معجم مقاييس اللغة ٢/ ٢٨٦.
(٤) لسان العرب ١٣/ ١٥٥.
(٥) معجم مقاييس اللغة ٢/ ٨٤.
(٦) تفسير القرطبي ٦/ ١٤١.

فالدقة واضحة في اختيار اللفظ الذي لم يَرِد في غير هذا الموضع من القرآن، والله تعالى أعلم وأحكم.

المثال الثاني:

ـ كلمة [**فَانْبَجَسَتْ**] وردت مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وورد في سياق قريب منه [فَانْفَجَرَتْ] حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة].

وقد بحث العلماء في التفريق بين الانبجاس والانفجار، وخلاصته في رأيين:

الرأي الأول:

أنهما بمعنى واحد، فيكون اختيار كل لفظ في موضع من باب التفنن والتنويع في الألفاظ، مع اتحاد الدلالة.

قال البغوي: «وأكثر أهل التفسير يقولون: انفجرت وانبجست: واحد»(١).

وقال الألوسي: «والظاهر استعمالهما بمعنى واحد»(٢).

وقال ابن فارس: «بَجَسَ: الباء والجيم والسين: تفتُّح الشيءِ بالماء خاصّة»(٣).

وقال أيضاً: «فَجَرَ: الفاء والجيم والراء أصلٌ واحدٌ، وهو التفتح في الشَّيء»(٤).

والرأي الثاني:

مع موافقة أكثرهم لما سبق، قالوا: بينهما فرق دقيق؛ وخلاصة القول:

---

(١) تفسير البغوي ١/ ١٠٠.
(٢) روح المعاني ١/ ٢٧١.
(٣) معجم مقاييس اللغة ١/ ١٩٩.
(٤) المرجع السابق ٤/ ٤٧٥.